الدولة العثمانية : نشأتها وازدهارها

صادق حسن عبد والي

تقـــديم واهـــداء

يتناول هذا البحث جانبا مهما من تاريخ عمان وبالأحري الجانب الذى كان محل اعتزاز وفخر للعمانيين عبر اجيال عديدة خلال القرون الماضية ، ولازالت آثار ذلك الاحساس قائمة حتى اليوم • فعندما يشار الى عمان فى المحافل الدولية ، فان أهم ما يشار اليه انها دولة لها تاريخها الذى تمتد جذوره الى مئات السنين قبل الميلاد وانها دولة استطاعت أن تجابه أساطيل الامبراطورية البرتغالية بل التفوق عليها وانشاء دولتها الخاصة على انقاض الامبراطورية البرتغالية فى شرق افريقيا •

وكلمة الامبراطورية فى الواقع حساسة وغير دقيقة وهى تطلق عادة على أية دولة استطاعت أن تمد سيطرتها ونفوذها خارج مناطق حدودها ، خصوصا اذا كانت هناك فواصل جغرافية بين حدودها الأصـــلية وحـــدود الأجزاء التابعة لها •

وكلمة الامبراطورية بدىء باستعمالها على عهد الدولة الرومانية التى استطاعت أن توسع من رقعة الأراضى التابعة لها لتشمل مناطق فى بقـــاع مختلفة من العالم وكانت الكلمة مرادفة فى بداية استعمالها للنظام السياسى السائد فى الامبراطورية الرومانية والبيزنطية حيث كان رئيس الدولة يلقب بالامبراطور ، ولكن لعدم وجود كلمة مشابهة تشمل الدولة الأصلية والمناطق التى تم فتحها أو الاستيلاء عليها فان كلمة الامبراطورية استعملت تجاوزا على أوضاع أية دولة كانت لها سلطة حكم على أراضى دول أو شعوب أخرى حتى لو لم يكن النظام السائد بها نظاما امبراطوريا •

ومن هذا المنطلق استعملت كلمة الامبراطورية تجاوزا على الأراضى التى كانت خاضعة للدولة الاسلامية ، فسميت لدى العـــديد من المؤرخين بالامبراطورية الاسلامية • وبنفس الأسلوب اطلقت كلمة « الامبراطورية البريطانية » على بريطانيا والأراضى التابعة لهـا وكلمة « الامبراطورية الفرنســية » على فرنســـا والأراضى التابعــة لها • وبنفس المعنى تطلق « الامبراطورية العمانية » على عمان والأراضى التى كانت تابعة لها فى حقبة زمنية من التاريخ •

ويتألف هذا البحث من أربعة فصول • الفصل الأول : أوضاع عمان قبل نشأة الامبراطورية العمانية • والفصل الثانى : نشأة الامبراطورية العمانية فى عهد دولة اليعاربة • والفصل الثالث : نمو وازدهار الامبراطورية فى عهد أسرة البوسعيد • والفصل الرابع والأخير : يتناول اضمحلال الامبراطورية العمانية بعد وفاة سعيد بن سلطان عام ١٨٥٦م •• ويتناول كل فصل باسهاب الأسباب والمقومات والعوامل الداخلية والخارجية التى ساهمت فى نشأة الامبراطورية وازدهارها أو تلك التى ساهمت فى اضمحلالها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر •

ولمـــا كانت عمان تشهد فى الفترة الحالية بقيادة مولانا جلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم نشأة حضارة جديدة على أنقاض الحضارة التى اضمحلت خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وتقديرا للجهود المخلصة التى بذلت خلال السنوات العشر الماضية من النهضة المباركة والتى استطاعت نقل عمان من دولة متأخرة الى دولة مسايرة لمقومات حضارة القرن العشرين ، فاننى أتشرف باهداء هذا البحث الى قائد نهضتنا جلالة السلطان المعظم ، حفظه الله •

المؤلف

١/١١/١٩٨٠م

عمان فى المرحلة السابقة لنشأة الدولة العمانية :

يطلق عادة تعبير « العصر الذهبى » لمنطقة الخليج على الفترة التاريخية لهذه المنطقة الواقعة بين عامى ٧٥٠ و ١٥٠٧ م حين استطاعت هذه المنطقة أن تلعب دورا بارزا كوسيط تجارى بين تجارة الشرق والغرب والتى أدت الى ازدهار المنطقة ونشوء مراكز جديدة عادت بالخير على أهلها • وبرغم أن العمانيين لعبوا دورا مهما وقدموا اسهامات بارزة فى عمليات التبادل والنقل التجارى فى تلك الحقبة من التاريخ • وبرغم أن تلك الاسهامات أفادت العمانيين باكسابهم مزيدا من الخبرة فى عمليات التبادل التجارى وصناعة السفن والعلوم البحرية ، فان تلك الفترة لم تكن هى « العصر الذهبى » لعمان ، بل الواقع ان العصر الذهبى العمانى ابتدأ بعد ما يقرب من قرن ونصف من انتهاء العصر الذهبى لمنطقة الخليج وذلك على أثر تزايد دور الملاحة العمانية فى المنطقة ونشوء حكومات مركزية قوية مهدت لانشاء أول امبراطورية عمانية فى التاريخ واستطاعوا خلالها اخضاع العديد من المدن والمراكز التجارية فى الخليج وشرق افريقيا تحت سيطرتهم • وأصبحت عمان لمدة تزيد عن قرنين من الزمن قوة سياسية واقتصادية مهمة فى المنطقة تتعامل مع القوى الدولية الكبرى وتلعب دورا بارزا فى سياسات المنطقة وتقرير مستقبلها •

ويجدر بنا أولا ان ندرس بعناية العوامل السياسية والاقتصادية والطبيعية التى مهدت وساهمت فى توفير المقومات والقدرات اللازمة لتحقيق الفتوحات العمانية وانشاء أول امبراطورية عمانية فى منتصف القرن السابع عشر الميلادى ذلك ان تحقيق مثل هذا الهدف الكبير لا يتأتى الا بتوافر قدر كاف من الارادة السياسة ووسائل حربية تقنية متطورة الى جانب الخبرات القتالية تكون متمشية مع روح العصر وامكاناتها •

من المعروف أن عمان تعتبر من أكثر الأقاليم عزلة من الناحية

الجغرافية ، فالى جانب احتواء البحر لعمان من جهات ثلاث ، فان رمال الربع الخالى تحيط بها من الجانب الرابع • وفى الوقت الذى أدت هذه العوامل الجغرافية الى فرض عزلة عمان عن العالم الخارجى ، فان السلاسل الجبلية الممتدة من الشمال الى الجنوب قسمت البلاد الى مناطق متباينة تعانى من صعوبات الاتصال الداخلية بسبب وعورة الطرق الجبلية مما خلق نوعا من العزلة بين المناطق الساحلية والداخلية الا عبر طرق محدودة ومعروفة •

الوحدة والتكاتف بين الشعب العمانى :

ورغم تلك العوامل الجغرافية والعزلة الطبيعية ، فقد استطاع الشعب العمانى أن يخلق الاتصالات الحضارية خارجيا وداخليا • فعن طريق البحر استطاع البحارون العمانيون وصناعوا السفن بجهودهم المتواصلة عبر قرون من الزمن أن يخلقوا أسطولا بحريا قويا ويصبحوا سادة البحار فى المنطقة • كما أن توافر المياه فى الشريط الساحلى بين الجبال والبحار وكذلك فى المناطق الداخلية الواقعة فى السلاسل الجبلية قد ساعدت على اقامة كيان زراعى متطور ، وبرغم صعوبات الاتصالات الداخلية من ناحية والتناحر القبلى فى فترات مختلفة من التاريخ من ناحية أخرى ، الا أن هذه العوامل لم تمنع من تلاحم الشعب العمانى وتكاتفه وتعاونه ، فقـد كانت عوامل التعاطف والتعاون أقوى بكثير من عوامل التفرقة وصعوبات الاتصال •

ومن العوامل التى ساعدت على الوحدة والتماسك والتعاون ، أن الغالبية الساحقة من المواطنين العمانيين هم عرب جاءت هجراتهم الأولى على موجتين فى فترتين زمنيتين قبل ظهور الاسلام بقرون •

وعرف المهاجرون العرب الأوائل الذين جاءوا من اليمن حوالى القرن التاسع ق•م باليمانيين أو الأزد أو القحطانيين والدفعة الثانية التى هاجرت من شمال وأواسط الجزيرة العربية حوالى القرن الرابع أو الخامس الميلادى ، عرفت بالنزاريين أو العدنانيين •

وكان التنافس بين المجموعتين أمرا طبيعيا ، الا أن الأهداف المشتركة بينهما وخصوصا مواجهة عدو مشترك قد أذاب ذلك الجو المشحون من التنافس وبالتعاون المشترك تم طرد الفرس الذين كانوا يحكمون أجزاء كبيرة من عمـــان .

وفى فترات لاحقة من التاريخ العمانى فى القرن الثامن عشر .. ؟ ظهرت صراعات سياسية حادة على السلطة وانقسمت القبـائل الى مجموعتين سياسيتين هما الهناوية والغافرية . ويحاول العديد من المؤرخين الربط بين الصراعات الهناوية الغافرية وبين الصراعات النزارية والقحطانية الا أنه بالدراسة المتأنية يثبت لنا أن العديد من القبائل النزارية والقحطانيين كانت متداخلة فى مجموعتى الغافريين أو الهناويين وبالتالى فان الصراعات الأخيرة كانت بالدرجة الأولى صراعات سياسية .

ومن العوامل التى ساعدت على الوحدة والتكاتف انتماء المجتمع العمانى ككل الى الاســـلام وانتماء غالبيتهم الى المذهب الاباضى . بل ان ولاء الشعب العمانى لهذا المذهب ، خصوصا فى القرون الأولى من الاسلام ساعد كثيرا نتيجة فلسفة هذا المبدأ على اختيار زعامات دينية استطاعت أن تحقق السلطة المركزية فى البلاد ، انضوت تحت لواءه كل القبائل العمانية.

ومن العوامل الأخرى التى ساعدت على الوحدة والتماسك أيضا وجود « العدو المشترك » ففى فترات مختلفة من التاريخ التحم الشعب العمانى وتوحد ودافع عبر نضال شاق عن ترابه ومكتسباته ضد عدو مشترك مثل الفرس أو البرتغاليين . بل ان وحدة النضال ضد البرتغاليين كان عاملا أساسيا من عوامل انشاء الامبراطورية العمانية .

والاختلافات الوحيدة التى تواجدت فى عمان بين أبناء الساحل والداخل هى تلك الاختلافات التى تفرضها عوامل الطبيعة فى أى بلد فى العالم . كاشتغال أبناء الساحل فى حرفة الصيد متميزين عن أبناء الداخل وتأثرهم

أكثر بعادات وتقاليد الشعوب الأخرى نتيجة الاحتكاك الحضارى مع العالم الخارجى • فكان أبناء الساحل عموما أكثر انفتاحا فى تعاملهم مع أجناس أخرى وأكثر اكتسابا لعادات مجتمعات أخرى ، ممـا كان يخلق نوعا من الاختلافات الفرعية فى الممارسات التقليدية بين أبناء الساحل الأكثر تأثرا بالحضارات الخارجية وأكثر اعتدالا فى ممارسة الشعائر الدينية ولكن هذه الاختلافات لم تكن تؤثر على مسائل عقائدية جوهرية أو الحفاظ على وحدة التراب من الأعداء أو التعاون المثمر فى المجال الاقتصادى والاجتماعى مثل الزراعة والزواج وغير ذلك •

دور العمانيين خلال العصر الذهبى لمنطقة الخليج :

وكما سبق أن قلنا ، فان فترة « العصر الذهبى » لمنطقة الخليج تقع بشكل عام بين سنة ٧٥٠م وهى بداية نشأة الخلافة العباسية فى بغداد وعام ١٥٠٧م عندما استولى البرتغاليون على « هرمز » التى كانت أهم مركز تجارى فى منطقة الخليج •

وعلينا أن نتفهم أنه خلال هذه الفترة الطويلة التى تسمى بالعصر الذهبى كانت تتداخل فترات ركود تجارى نسبى تفرضه عوامل الحروب والتغيرات الدولية فى مناطق مختلفة • وأهم العوامل التى ساعدت على رواج التجارة بين الشرق والغرب من ناحية وزيادة الطلب على كثير من المنتجات الشرقية فى داخل العالم الاسلامى هو استقرار الحكم وازدهاره فى العديد من مناطق العالم •

ففى بغداد كانت الامبراطورية الاسلامية بزعامة الخلفاء العباسيين فى أوج ازدهارها وفى الصين كانت أسرة شانج قد استعادت نفوذها فى البـلاد كما استطاعت الامبراطورية البيزنطية اعادة تحقيق الازدهار فى الجزء الشمالى الشرقى من البحر المتوسط بينما استطاعت أوربا الغربية بقيـادة

الملوك الكارولنجيين أن تتخلص ممن الفوضى التى أعقبت انهيار الامبراطورية الرومانية •

ولما كانت الطرق البرية بين غرب وجنوب آسيا محدودة فان نمو واتساع النشاط الاقتصـادى العالمى استوجب استخدام الطرق البحرية ، وانحصر الخيار بين طريقى البحر الأحمر ومنطقة الخليج لأن الطريق حول رأس الرجاء الصالح لم يكن قد بُدِىء فى استعماله بعد • وكان طبيعيا أن يستوجب استعمال طريق البحر الأحمر ومنطقة الخليج استخدام محطات انتقال تقع فى تلك الطرق الملاحية الى جانب محطات الانتقال فى كل من مصر والعراق والشـام •

ومن المراكز التجارية التى احتلت مكانة الصدارة فى منطقة الخليج خلال فترة العصر الذهبى ميناء سيراف على الجانب الايرانى من منطقة الخليج ، وخلال الفترة بين عامى ٩٠٠ و ١١٠٠م • كانت سيراف أهم محطة تجارية عبر الطريق البحرى الرئيسى الذى يربط بين الشرق والغرب وكانت منطقة التجمع والمنفذ الرئيسى للسلع القادمة من بلاد فارس ومنها كانت تتدفق شحنات الحرير الايرانى من شيراز •

وخلال الفترة من عامى ١١٠٠ ـ ١٣٠٠م حل ميناء « قيس » محل سيراف كأهم محطة تجارية فى المنطقة • و « قيس » هى جزيرة تقع على بعد عشرة أميال تقريبا من الجانب الفارسى من الناحية الجنوبية للخليج • ورغم ازدهارها الكبير وتبوأها مكان الصدارة ، فان ازدهارها ونشاطها التجارى لم يرق الى مستوى « سيراف» ، ذلك لأن البحر الأحمر فى هذه الفترة كان يلعب دورا مهما ومنافسا للتجارة الدولية مما أضعف الى درجة معينة ازدهار منطقة الخليج ، واستطاع حكام قيس أن يخضعوا سـيراف تحت سيطرتهم عام ١١٧٠م •

وفى أواخر القرن الثالث عشر برزت الى الوجود دولة هرمز التى غدت أهم منطقة لتجميع السلع التجارية وأكبر منافس لميناء قيس •

ودولة هرمز بدأت تأخذ دورها التجارى منذ القرن الحادى عشر الميلادى الى أن استطاعت أن تتبوأ مكان الصدارة فى أواخر القرن الثالث عشر • وتعود أهمية دولة هرمز الى موقعها الاستراتيجى فى المضايق المؤدية الى الخليج • وبرغم صغر مساحة الدولة ، فان ملوك هرمز كانوا يحكمون البلاد اسميا وكانت السلطة الفعلية فى يدى مجموعة أوليجركية من التجار ، وكان مجلس الملك برئاسة الوزير هو الذى يقوم بتعيين الولاة فى مناصبهم ويشرف على القوات البحرية والجيش •

وقد ساعد على نمو وازدهار جزيرة هرمز بعدها عن مراكز القلاقل السياسية داخل دولة فارس • وقدرت عدد سفنها عام ١٥٠٣م بثلاثمائة سفينة ولكن فى عام ١٥٠٧م استطاع البرتغاليون أن يستولوا على هرمز • وباستيلاء البرتغاليين بدأت هرمز تفقد مكانتها التجارية الرئيسية نتيجة اهمال البرتغاليين لشؤون التجارة ، وفقدت هرمز جزءا كبيرا من دخلها من التجارة بحلول عام ١٥٨٥م • وبسيطرة البرتغاليين على هرمز انتهى العصر الذهبى لمنطقة الخليج وبدأ ما يسمى بالعصر الفضى •

وخلال تلك الحقبة من التاريخ ، بدأت مكانة العمانيين كبحارة ذو خبرة واسعة تبرز على الصعيدين المحلى والاقليمى • وخلال العصر الذهبى لدولة هرمز (١٣٠٠ — ١٥٠٧م) كان أغلب البحارة لسفن تلك الدولة من عرب عمان واليمن ، واستطاع البحارة العمانيون أن يكتسبوا خبرات ملاحية فعلية وأصبحوا يجوبون المحيطات بكل ثقة وطمأنينة ، وليس أدل على خبرات البحارة العمانيين فى تلك الحقبة الزمنية من التاريخ من أن الملاح العمـانى ابن ماجد هو الذى أرشد فاسكو دى جاما الطريق الى الهند عام ١٤٩٨م •

الحملات البرتغالية ضد عمان :

حل البرتغاليون فى القرن السادس عشر محل تجار البندقية بايطاليا كوسطاء للتجارة الدولية • وحتى منتصف القرن الخامس عشر كان بحارو البندقية فى أوج ازدهارهم كوسطاء للتجارة بين الشرق والغرب ، وكان أسطولهم التجارى يعتبر من أقوى الأساطيل فى أوربا • وجاءت الضربة الأولى ضد أهل البندقية عندما تمكن الاتراك من الاستيلاء على قسطنطين عام ١٤٥٢ ونتج عنها تدهور فى التجارة القادمة من منطقة الخليج والشام • كما أن الحروب بين أهالى جنـــوة والبندقية شكلت عاملا آخر من عوامل تدهور مكانة البندقية •

وفى عام ١٤٩٨ كما أسلفنا ، تمكن البحار البرتغالى فاسكو دى جاما من الوصول الى الهند عبر طريق رأس الرجاء الصالح ، وكان لهذا الاكتشاف نتائج رهيبة للطرق التجارية الدولية مؤداها امكانية نقل البضائع والمؤن وغيرها عن طريق البحر من الشرق الى أوربا دون الحاجة الى مرور تلك الشحنات عبر محطات التجارة البرية فى الخليج والشام ومصر وتركيا •

وبرغم محاولات سلطان مصر والأتراك ودوق البندقية منع البرتغاليين من ممارسة التجـــارة فى البحـــر العربى ، الا أن البرتغاليين استمروا فى نشاطهم وزادت كثافة سفنهم •

وفى عام ١٥٠٤ عندما عاد البوكيرك من رحلته ، عرض على ملك البرتغال خطة كاملة للاستيلاء وضم أراضى كثيرة فى الشرق الى البرتغال تمهيدا لفرض احتكار وسيطرة كاملة على التجارة بين الشرق والغرب •

وفى عام ١٥٠٦ عين البوكيرك نائبا للملك وحاكما عاما فى الشرق وكلف بمهمة تحقيق الفتوحات البرتغالية فى الشرق ، تلك الأراضى التى تكون من شأنها ضمان سيطرة البرتغاليين على تجارة الخليج وقد ضمت الحملة الكبيرة

ثلاثة أساطيل أحدهما مكون من ١٦ سفينة بقيادة تريستان دوكونها • وقد تمكن هذا القائد فى يوليو ١٥٠٧ من تحقيق انتصار نهائى فى جزيرة سقطرة حيث تم ابادة الحامية المدافعة عن القلعة •

فى أغسطس من عام ١٥٠٧ ظهرت لأول مرة السفن البرتغالية فى الميـاة الاقليمية لعمان • وبعد ان تجاوز أسطول البرتغاليين جزر كوريا موريا ، ثم جزيرة مصيرة وصل يوم الحادى عشر من أغسطس قبالة رأس الحد ، حيث بدأ عملياته الحربية باطلاق النار على جميع السفن العربية الموجودة هناك والتى قدرت بحوالى ٣٠ الى ٤٠ سفينة ، وبعـد أن تمكن من اضرام النار فيها اتجه الأسطول البرتغالى الى الأمام تجاه صور التى وصفت فى ذلك الوقت بأنها قرية صغيرة من قرى الصيد •

ووصل الأسطول بعد ذلك الى مدينة قلهات • فأمر البوكيرك أسطوله بالرسو مع احداث أكبر استعراض وضجة ممكنة • وكان هذا أول استعراض لسفن أوروبية فى خليج عمان منذ عهد الاسـكندر الأكبر قبل ١٨ قرنا من ذلك التاريخ •

كانت قلهات من المدن الساحلية العمانية المزدهرة ، وهى القرية الساحلية التى زارها ابن بطوطة قبل حملة البرتغاليين بحوالى مائة وثمانين عاما • وفى هذه الفترة كانت سلطة الحكومة المركزية لأئمة عمان ضعيفة على المدن السـاحلية •

ويبدو أن ملوك هرمز كانوا قد استطاعوا اخضاع قلهات ضمن نفوذهم السياسى • فعندما بعث البوكيرك وفدا من أسطوله فى اليوم الثانى من وصوله أبلغ بأن المدينة تخضع للحكم السياسى لملك هرمز ، كما أبلغهم والى المدينة بأنه على استعداد لتزويد الأسطول البرتغالى بالمؤن المطلوبة • وفى اليوم التالى تم تقديم هدايا للبوكيرك الذى رفض تناولها وأصر على الاستسلام غير المشروط للمدينة واعلان الولاء لملك البرتغال •

اتخذ والى قلهات الفارسى موقفا سياسيا مرنا ، فلم يرغب أن يعرض المدينة للدمار ، وهنا طلب من البوكيرك التفاوض مع ملك هرمز على الشروط مؤكدا أنه سواء أدت الاتصالات مع ملك هرمز الى السلم أو الحرب ، فانه سيعلن ولاءه لملك البرتغال • وبناء على نصيحة مستشاريه قرر البوكيرك التوجه الى هرمز بعد أن تزود بالمؤن •

كانت المحطة التالية للبوكيرك قريات ، وكان أهل قريات متأهبين للدفاع والاستبسال أمام الغزو البرتغالى ، وفى اليوم التالى عندما وضع البوكيرك خططه الهجومية ، كان أهالى قريات قد أعدوا مدفعين هاون احدهما مجهز بأربع هاونات للدفاع عن المدينة • وبرغم بسالة أهل قريات وفدائهم ، فان القوى الدفاعية والهجومية لم تكن متكافئة •

وعندما تمكن البرتغاليون من انزال قواتهم ، قاموا بمذبحة رهيبة لم يميزوا فيها بين الرجال والنساء والأطفال ولاظهار مدى انتصاراتهم على الأهالى ، فقد تم نقل المسجونين الى سوق المدينة بعد أن تم جدع أنوفهم وآذانهم • وتم بعد ذلك نهب المدينة وحرقها والاستيلاء على أسلحة الدفاع المتوفرة • كما تم احراق كافة السفن الصغيرة والكبيرة التى وجدت فى الميناء وتقدر بحوالى ٣٨ سفينة •

الاستيلاء على مسقط :

وصف البوكيرك نفسه مدينة مسقط عندما شن حملته للاستيلاء عليها : بأنها مدينة كبيرة وآهلة بالسكان ، تحيطها من الجانبين جبال شاهقة وواجهتها قريبة جدا من أطراف مياه البحر ، وخلفها نحو الداخل يوجد سهل كبير مثل ساحة لشبونة • وتوجد بها برك كثيرة من المياه الحلوة التى يستعملها سكانها ، وتوجد هناك بساتين وحدائق وأشجار النخيل والتى تروى من مياه الآبار • والميناء صغير على شكل حدوة حصان ومحمى من الرياح • وهو مركز

تجارى مهم حيث تضطر جميع السفن المبحرة فى تلك المناطق ان تدخله ، وذلك لتجنب الساحل الضحل فى الطرف المقابل .

وفى مسقط سوق قديمة لتصدير الخيل والتمور ، وهى مدينة جميلة وبها مساكن جميلة وتزود من الداخل بكثير من المنتجات الزراعية مثل القمح والشعير والدخن والتمور . وتستقبل أى عدد من السفن التى تقدم اليها .

كانت السلطة المركزية فى تلك الفترة بيد الامام محمد بن اسماعيل بن عبد الله الحاضرى الذى تولى الامامة خلال الفترة ٩٠٦ — ٩٤٢ هـ (١٥٠٠ — ١٥٣٠ م) وكانت السلطة المركزية بشكل عام ضعيفة على الموانى ، كما أن ملوك بنى نبهان كانت لهم سلطة فى بعض المناطق من عمان والذين جاءوا الى الحكم حوالى عام ١١١٦م ودام حكمهم لمدة ٥٠٠ عام تقريبا بصورة متقطعة ، الا أن البوكيرك يشير فى روايته أن ملك عمان فى تلك الفترة هو « بن جابر » والواقع ان بنى جابر هم قبيلة من القبائل الرئيسية التى كانت تتمتع بنفوذ سياسى ودور تاريخى متعاظم . وكان مركزهم الرئيسى الجزء الغربى من عمان ، ونتيجة شهرتهم وبأسهم يوجد وادى يسمى باســـمهم . ودورهم التاريخى يعود الى فترات مختلفة من التاريخ .

فقبل الحملات البرتغالية بقرنين ونصف تقريبا كان لهم دور بارز فى الحاق الهزيمة للقوة التى بعثها ملك هرمز ركن الدين محمد عام ١٢٤٣م ، حاول خلالها غزو المناطق الداخلية بعد أن تمكن من اخضاع قلهات تحت نفوذه، كما لعب بنو جابر دورا بارزا فى فترات لاحقة من التاريخ فى القرن الثامن عشر الميلادى عندما أصبح بنو جابر يشكلون القوة الرئيسية فى التكتل السياسى الذى سمى بالغافريين ضد التكتل السياسى الآخر وهم الهناويين ، وذلك برغم أن بنى جابر ينتمون الى المذهب الاباضى مثلهم مثل معظم الفروع فى التكتل الهناوى .

من الواضح اذا أن القوة البحرية للعمانيين كانت متعاظمة فى تلك الفترة ، فاذا أخذنا فى الاعتبار أن البرتغاليين دمروا عشرات السفن العمانية فى حملتهم ، فمما لاشك فيه ان مجموع السفن العمانية كانت تصل الى عدة مئات ، اذا أخذنا فى الاعتبار السفن التى كانت مشغولة فى التجارة الخارجية وقت الحملة والسفن التى تكون قد بعدت عن السواحل تجنبا للدمار البرتغالى •

وفى مسقط حاول السكان فى البداية تجنب الحرب بايفاد بعثة من اثنين من أعيان البلاد للتفاوض مع البوكيرك ولكنه رفض تلك البعثة لانها لم تكن مزودة بتفويض رسمى من والى مسقط • وكانت شروط البوكيرك ان تدفع مسقط ضريبة سنوية وأن تزود أسطوله بالمؤن والمياه أثناء عملياتها الحربية المقبلة ضد هرمز •

ولكن وصول امدادات من عمان الداخل فى مساء اليوم التالى حفز المواطنين على المقاومة خصوصا وانهم كانوا قد انتهوا من بعض استعدادات الدفاع • فبنوا سورا بين تل وآخر قبالة الشريط الساحلى فى مسقط •

تمكن البوكيرك بعد ان قسم اسطوله الى قسمين تولى ميمنته الكابتن دادافورا داكوستا والميسرة بنفسه ، ان يحقق انزالا بحريا على جانبى الحصون ثم دفع المدافعين الى خارج المدينة وأجرى مذبحة رهيبة بين السكان العرب شملت النساء والأطفال •

وكانت مذبحة البوكيرك بين النساء رهيبة الى درجة ان قائدين من قواده تمردا عليه وهما انطوا دا كامبو وجودا دا نوفا وتم الاستيلاء على ٣٠ مدفعا وأنواع أخرى من الأسلحة •

وبقى البوكيرك ٨ أيام فى مسقط يجهز أسطوله بالمؤن والمياه ، كما قام باشعال الحرائق فى المدينة قبل أن ينسحب وذلك بعد أن فشل سكان

المدينة من دفع الفدية الباهظة التى طلبها البوكيرك والتى حـــددت بعشرة آلاف اشرفية من الذهب • كما التهمت الحرائق ٣٤ سفينة كبيرة الى جانب سفن صغيرة للصيد وكذلك المسجد فى مسقط والذى كانت تزينه زخارف من الخشب المحفور •

كانت صحار هى المحطة التالية فى الحروب البرتغالية ضد المـــوانىء العمانية • ويبدو أن صلات صحار بالداخل كانت أقوى من بقية المدن ، فقدمت الى صحار قوة قوامها ٧ آلاف مقاتل من الداخل من قبيلة بنى جابر ، وحاول والى صحار اظهار قوته والتهديد بان صحار ستقاوم بوسائل مختلفة عن الوسائل التى واجهها البوكيرك فى مدن أخـــرى • ولـــكن ازاء اصرار البوكيرك بالاستسلام واعلان الولاء لملك البرتغـــال واثقا من قدرته على الاستيلاء على صحار وافق الطرف العمانى على التفاوض •

وبموجب شروط الاستسلام السلمى تم تعيين والى صحار نائبا عن ملك البرتغال وتم فرض جزية سنوية عليها • كما تم التوقيع من جانب والى صحار على تعهده بالولاء لملك البرتغال وتعهد البوكيرك من جانبه على حماية صـــحار •

وكانت المحطة الأخيرة من حملات البوكيرك فى الأراضى العمانية ميناء خور فكان ، حيث قدمت قوات كبيرة من المشاة والفرسان • ولم يقم أهالى خور فكان بايفاد بعثة تفاوض الى البوكيرك فقام القائد البرتغالى بالهجوم على البلدة وتمكن من الاستيلاء على قلعتها بعد مقاومة باسلة • ولكن الغنائم لم تكن بالحجم الذى كان يتمناها البرتغاليون اذ أن التجار الهندوس الذين كانوا فى البلدة غادروها فى أسطول صغير قبل الحملة البرتغالية حاملين معهم معظم ثرواتهم وبضائعهم •

وعلى أية حال فان العديد من الأسرى تم اطلاق سراحهم بعد ان تم جدع أنوفهم وآذانهم •

ويصف البوكيرك خور فكان بأنها تقع تحت جبل شاهق وكانت بلدة كبيرة يقطنها الكثير من التجار الهنود (البانيان) والطقس كان صحيا وتوجد فيها زراعة للقمح والدخن والبرتقال والليمون والنخل والتين والميناء كان جيدا يحميه حصنان والخيول كانت تصدر منها الى الهند .

بنجاح البرتغاليين فى الحاق الهزيمة بالمقاومة الباسلة لأهالى خور فكان، أصبحت العديد من المدن العمانية الساحلية خاضعة للبرتغاليين .

وهكذا أصبحت عمان خاضعة لثلاثة سلطات : الامام محمد بن اسماعيل، ومركزه الرستاق ومناطق فى الداخل كانت لا تزال خاضعة لبنى نبهان والمدن الساحلية : صور ، مسقط ، مطرح ، قريات ، قلهات ، صحار ، خور فكان ، دبا ولوى خاضعة للبرتغاليين . الا ان القرى الساحلية الواقعة بين تلك المدن الساحلية كانت تخضع فى ولائها للسلطة المركزية للامام .

عمان تحت الحكم البرتغالى :

ان النظام الذى اتبعه البرتغاليون من أجل ضمان السيطرة السياسية والتجارية على المدن الساحلية فى عمان ، كان يتمثل فى احكام السيطرة على الحصون والموانىء والجمارك وفى المدن المهمة كان يتم تعيين قائد برتغالى تسانده قوة عسكرية محدودة مع تزويده بكمية من الأسلحة تمكنه من الدفاع فترة زمنية محددة ، معتمدة أساسا على دوريات أساطيلها التى كانت تجوب المنطقة وتزور المدن العمانية الساحلية للتأكد من استمرارية ولاء تلك المدن للبرتغال . ولم يكن هذا النظام يسمح لها بالتوغل فى المدن الداخلية لعمان ، ذلك لان البرتغاليين كدولة بحرية كانت ستحتاج الى عدة ألوف من الجنود فيما لو حاولت التوغل داخل المدن نظرا للكثافة السكانية فى المدن الداخلية الامر الذى كان سيضعها فى حروب مستديمة تؤدى بها الى أفدح الخسائر وتحرمها من جنى الأرباح التى كانت تهدف الحصول عليها من خلال السيطرة على المدن التجارية الساحلية .

ونتيجة لذلك فقد فضل البرتغاليون عدم التدخل فى الشؤون الداخلية أو الدينية للسكان والاكتفاء بالسيطرة على الجمارك والموانىء والحصون •

ونظرا الى ان الولاة فى بعض المدن الساحلية العمانية قبل مجىء البرتغاليين كانوا خاضعين لملك هرمز وبعد سقوط هرمز بأيدى البرتغاليين وقبول ملك هرمز سلطة البرتغاليين والولاء لملكها ، فانها أبقت على الولاة الفرس فى المدن العمانية مع ضمان ولائهم لملك البرتغال • وفى بعض الاحيان كانت تقوم بتثبيت شخصيات عمانية فى بعض المدن اذا ثبت لها بأن تلك الشخصية راغبة فى التعاون مع السلطات البرتغالية واعلان الولاء لملك البرتغال ودفع الضرائب السنوية •

وخلال الفترة من ١٥٠٧ بداية السيطرة البرتغالية الى عام ١٦٣٣ بداية طرد البرتغاليين بقيادة الامام ناصر بن مرشد اليعربى ، شهدت عمان والمنطقة تطورات وتداخلات سياسية معقدة ، فكان البرتغاليون من ناحيتهم يحاولون احكام السيطرة على المدن العمانية وجمع الضرائب السنوية وقمع أى تمرد من جانب ملك هرمز أو الولاة التابعين له •

وكان الفرس من جانبهم يحاولون استغلال الفرصة المواتية للاعلان عن استقلالهم والتخلص من السيطرة البرتغالية الى جانب محاولات تمرد من بعض الولاة الفرس فى المدن العمانية ضد ملك هرمز •

والعمانيون من جانبهم خاضوا صراعا على مرحلتين ، تمثل ذلك الصراع فى المرحلة الأولى باحلال ولاة عمانيين محل الولاة الفرس فى المدن العمانية الساحلية مع بقاء الولاء لملك البرتغال • ثم المرحلة اللاحقة للتخلص من الاستعمار البرتغالى •

والى جانب ذلك شهدت المنطقة صراعات دولية كبيرة ، فقد حاول الأتراك من جانبهم بدون جدوى تخليص المنطقة من السيطرة البرتغالية ثم دخل الانجليز والهولنديون طرفا فى الصراعات الا أن صراعاتهم انحصرت

فى حروب ضد الأساطير البرتغالية ولم يقدموا أية مساندة للعمانيين لتحرير بلادهم •

وبالنسبة لمحاولات البرتغاليين احكام السيطرة على المدن العمانية جاءت العمليات الأولى عام ١٥٠٨ م ضد مدينة قلهات عندما قدم الأسطول البرتغالى بقيادة البوكيرك نفسه لتوجيه ضربة انتقامية ضد والى وسكان قلهات بسبب مساعدتهم لملك هرمز أثناء الحملة البرتغالية ضد هرمز •

وعندما فشل نورونها ابن أخ البوكيرك فى اقناع الوالى شريف الدين بالتوجه الى سفينة القائد لمقابلة قائد الأسطول : البوكيرك خوفا على حياته ، قام الأخير بانزال قواته الى البر فالتجأ شريف الدين الى التلال الخلفية للمدينة وبعد أن جمع القائد البرتغالى أكبر كمية ممكنة من المؤن والأشياء الثمينة قام بحرق المدينة بما فى ذلك الجامع الذى كانت تزخرفه نقوش رائعة كما جاء فى وصف البوكيرك نفسه وهو نفس الجامع الذى زاره ابن بطوطة قبل قرنين تقريبا من ذلك العام •

حافظت هرمز كما كانت فى عصرها الذهبى على مكانتها كزعيمة للمدن التجارية فى منطقة الخليج حتى بعد خضوع ملكها لسلطة البرتغاليين •

وكانت قلهات تتزعم مسؤولية جمع الضرائب من باقى المدن العمانية وتقوم بارسالها الى ملك هرمز لتسليمها الى البرتغاليين • وقد بلغت تلك الضرائب التى كانت تجمعها قلهات فى العقد الثانى من القرن السادس عشر ١٩٫٢٠٠ أشرفية كانت تساوى ٥٧٦٠ ريالا ماريا تيريزا بالاضافة ٧٫٥٠٠ أشرفية كانت تدفعها مناطق ساحل جلفار (رأس الخيمة حاليا) وكذلك ١٥٠٠ أشرفية كانت تدفعها السفن المختلفة مقابل صيد اللؤلؤ بالخليج والتى كانت تجبر على الذهاب الى هرمز للحصول على تصريح المرور • وبالتالى فان

مجموع ايرادات الضرائب من عمان والسفن التابعة لها كانت تبلغ ٢٨ر٢٠٠ أشرفية • وكانت مسقط لوحدها تدفع أكبر مبلغ كمدينة مستقلة ٤٠٠٠ أشرفية مما يوضح مركز مسقط التجارى فى تلك الفترة •

وفى الوقت الذى كان يسعى ملك هرمز أن يدبر تمردا ضد البرتغاليين ويحصل على استقلال بلاده والعودة الى العصر الذهبى لملكته ، فانه كان حريصا كل الحرص على قمع أى محاولة من جانب أى من ولاته فى المدن الأخرى •

ففى عام ١٥١٩ وجد ملك هرمز ان لديه المبررات الكافية التى تدعو الى كبح جماح الوالى فى قلهات ، ونظرا لمناعة قلهات وقدرتها التجأ ملك هرمز الى البرتغاليين لمساعدته فى تلك العملية •

وحاول الكابتن دوات ميديز دا فاسكونسيللو بالمؤازرة مع دوم جورج والبوكيرك انزال قوة صغيرة فى ظلام الليل للتوجه الى مسكن الوالى ريس شهاب الدين ، الا ان القوة فشلت فى مهمتها نظرا لأن الوالى وقواته كانوا على حذر من تلك العملية •

وفى العام التالى تم تسوية الأمور وديا من قبل الحاكم العام ونائب الملك دوم ديجو لويس دا سيكويرا •

فى عام ١٥٢١ ، قام ملك هرمز بمحاولة الاستقلال بملكه من البرتغاليين وجاء ذلك نتيجة تفاقم الأوضاع الاقتصادية والسياسية معا ونتيجة التدخلات السافرة من جانب البرتغاليين فى النظام الجمركى لهرمز وأساليب وتصرفات المسئولين البرتغاليين هناك •

وقد وضع ملك هرمز بالتعاون مع وزرائه خطة محكمة وسرية تم بموجبها اخطار كافة الولاة فى المدن الساحلية بالتمرد على السلطات البرتغالية فى يوم معين ومحدد ، وذلك لحرمان البرتغاليين من اللجوء الى مدن أخرى •

وقد كان تواجد الأسطول البرتغالى فى هرمز يشكل عائقا لتنفيذ هذه الخطة • وبناء عليه لجأ ملك هرمز الى حيلة طلب بموجبها من قائد الأسطول البرتغالى التوجه الى البحار لمعاونته فى قمع عمليات القرصنة التى كانت تتعرض لها بعض الموانى على الساحل العمانى ، وهكذا تمكن ملك هرمز من ابعاد نصف عدد القطع الحربية البرتغالية من هرمز •

ابتدأ التمرد فى هرمز يوم ٣٠ نوفمبر عام ١٥٢١ م ، وقامت قوات ملك هرمز بالهجوم على السفينتين المتواجدتين فى ميناء هرمز • وبعد أن تم أسر السفينتين واشعال الحريق فى احدى تلك السفينتين بدأت المذبحة ضد البرتغاليين حيث تم قتل حوالى ٦٠ شخصا من البرتغاليين والتجأ الباقون الى الحصن المنيع •

وفى المدن الأخرى انتشر التمرد فى نفس الوقت ، ففى البحرين واجه المسيحيون الاعتداء من الأهالى حيث قتل أيضا قائد الحامية البرتغالية روى بيل •

وفى صحار استطاع عدد قليل من البرتغاليين النجاة والمحافظة على حياتهم •

وفى قلهات كانت معلومات التمرد قد وصلت الى سكانها قبل حدوثه فتمكن عدد كبير من البرتغاليين النجاة واللجوء الى القوارب حاملين معهم ثمائنهم •

أما فى مسقط فان الظروف كانت مختلفة ، فقد كان الوالى فى تلك الفترة عربى وهو الشيخ راشد وهو أول ذكر لوالى عربى فى المدن الساحلية العمانية • ويبدو ان الوالى آثر معاونة البرتغاليين وكان على خلاف مع الفرس ، فمنع القيام بأى تمرد ، كما انه استغل مجىء الوكيل البرتغالى فاس دو فايجا فى قلهات والمسؤول عن الساحل العمانى ليعلن فسخ ولائه عن ملك هرمز واعلان ولائه لملك البرتغال •

ونتيجة لهذا الموقف من جانب الشيخ راشد ، فانه واجه مشكلة انتقام الولاة الفرس منه •

وفى أوائل عام ١٥٢٢ قام والى قلهات ريس ديلامير شاه بمحاولة انتقامية ضد الشيخ راشد ، فبعث بقوات برية الى مسقط ، الا أن الشيخ راشد تمكن بشجاعته من الحاق الهزيمة فى قوات والى قلهات وقتل الوالى نفسه ، الا ان انتصاره هذا لم يحل دون سداده الضرائب السنوية بانتظام الى ملك هرمز •

قاد البرتغاليون بعد ذلك حملة لاسترداد سيطرتهم على المدن الساحلية فى الخليج • فبعث الحاكم العام من جوا فور تلقيه الأنباء بقوة بحرية بقيادة دوم جو نسالو وفى الوقت نفسه جهز أسطولا آخر بقيادة دوم لويز دو منيرزيس لمساعدته • وكان وصول قوات دوم جونسالو كافية لاعادة السيطرة البرتغالية الى هرمز •

ويبدو أن زعماء القبائل العربية فى عمان قد حاولوا استغلال هذه الفرصة لفرض حكم عربى على المدن الساحلية العمانية • فعندما وصل دوم لويز فى نفس العام الى صحار وجد أن قبيلتين عربيتين كانتا تحاولان انتزاع الحكم من الوالى الفارسى ريس شهاب الدين • وكانت احدى القبيلتين بزعامة سلطان بن مسعود الذى كان يقود قوة من الفرسان تقدر بـ ٢٥٠ فارسا و ٣٠٠٠ من المشاه • والقبيلة الأخرى كانت بزعامة الشيخ حسين بن سعيد من بنى جابر الذى كان يقود قوة من الفرسان قوامها ٥٠٠ فارس و ٤٠٠٠ من المشاه •

ونجح القائد البرتغالى فى عقد تحالف مع الزعيمين العمانيين لمهاجمة الفرس برا بقوات القبائل العمانية وبحرا بقوات برتغالية ، على أن يؤول حكم صحار للزعامات العمانية •

وقد تمكن الوالى ريس شهاب الدين من اللجوء الى سفنه والفرار قبل نزول القوات البرتغالية • وبعد انتصار القوات المتحالفة عين الشيخ حسين بن سعيد واليا على صحار كما تم تعيين وكيل برتغالى مقيم بغرض جمع الضرائب السنوية •

وفى عام ١٥٢٦ ، ظهرت بوادر تمرد جديد من جراء تصرفات القائد البرتغالى دييجو دو ميللو فى هرمز والتى شملت أيضا بعض المدن الساحلية فى عمان ، الا أن القائد البرتغالى دو سابيايو استطاع احتواء الأزمة وحلها وديا عن طريق تقديم تنازلات الى والى قلهات والشيخ راشد فى مسقط مع وعد بتأديب قائد الحامية البرتغالى فى هرمز دو ميلو •

محاولات الأتراك طرد البرتغاليين من المياه الخليجية :

فى عهد السلطان سليمان الأول الملقب بالقانونى (١٥٢٠ — ١٥٦٦) جرت محاولات طرد البرتغاليين من مياه الخليج •

ففى عام ١٥١٧ خضعت مصر للحكم العثمانى • وخلال الفترة التالية من حكم سليمان الأول تمكن الأتراك من اخضاع اليمن وعدة موانىء عربية تحت سلطتهم ، الا أن عملياتهم الحربية فى المياه الخليجية لم تبدأ الا عام ١٥٤٦ م عندما قامت قوة بحرية من أربعة سفن بقصف ظفار ثم مسقط • ولم تحاول البحرية التركية انزال القوات على البر ، ولكى يضمن والى مسقط الحماية لظفار طلب من السفن البرتغالية أن تزور ظفار بين فترة وأخرى أثناء رحلاتها البحرية •

وفى عام ١٥٥٢ م جرت المحاولة الثانية للأتراك لطرد البرتغاليين من المياه الخليجية ، وتم تجهيز الحملة الثانية بكفاءة عالية • فقد عهد داوود باشا والى مصر قيادة الحملة الى بيرى باشا ادميرال مصر وتكونت الحملة من أسطول من ٣٠ سفينة مختلفة الحجم وقوات قوامها ١٦ ألف مقاتل •

وكان قائد الحامية البرتغالية فى مسقط فى تلك الفترة دوم جودا ليسبوا والذى أوفده ملك البرتغال خصيصا لبناء حصن فى مسقط لحماية البرتغاليين• وقام قائد الحامية البرتغالية بتجهيز الحصن الذى لم يكن بناؤه قد اكتمل بالمؤن وبالقوات المتوافرة لديه • الا أن هذه القوات لم تكن كافية لصد هجوم الأتراك الذين تمكنوا من النزول فى المدينة وجمع الغنائم ثم الهجوم على القلعة التى تمكنت من الصمود أكثر من ١٨ يوما ، اضطر بعدها القائد البرتغالى الاستسلام نهائيا •

ورغم ذلك لم يحاول الأتراك ابقاء قوة عسكرية لهم فى مسقط وانما اكتفوا بجمع الغنائم والتوجه الى هرمز معقل البرتغاليين فى الخليج ، حيث تمكنوا من انزال قواتهم على البر وجمع الغنائم الا ان القلعة استطاعت الصمود • وبعد قصف دام عشرين يوما يأس قائد الحملة التركية ورفع حصاره عن القلعة •

وعندما قدم الأسطول البرتغالى من جوا لمطاردة الأسطول التركى لم يحاول قائد الحملة التركية بيرى باشا صد الحملة أو مقاومتها • بل العكس من ذلك قام بتجميع الغنائم فى السفن الثلاثة التى كان يملكها والتى فقدت واحدة منها فى مياه البحرين واتجه بالباقيتين الى السويس ، الا أن تصرفاته هذه أدت الى قطع رأسه فى مصر بتعليمات من القسطنطينية ومصادرة غنائمه •

لم يؤد الفشل الذى لحق بالحملتين السابقتين للأتراك الى تثبيط همم السلطان سليمان ، اذ أن جزءا كبيرا من ذلك الفشل كان يعود الى سوء تصرفات قواد حملته الذين هدفوا فى النهاية الى جمع الغنائم وبالعكس من ذلك ، فان نجاح الأسطول التركى فى حملته على مسقط وتمكنه من أسر قائد الحامية البرتغالى هناك خلق مزيدا من الحوافز على محاربة التواجد البرتغالى فى منطقة الخليج •

وبناء على تعليمات السلطان سليمان ، قاد مراد باشـــا والى قطيف ، حملة فاشلة أخرى عام ١٥٥٣ ، حين تمكن القائد البرتغالى الذى كان على علم مسبق بتلك الحملة القادمة من البصرة ، من الحاق هزيمة نكراء فى قطع أسطوله فى مداخل الخليج • ولكن سرعان ما أمر السلطان سليمان باعـــداد حملة أخرى الى مياه الخليج ، وكان يقود الحملة هذه المرة سيدى على بن حسين وهو بحار متمرس ، شارك فى حملات بحرية تركية سابقة تحت أمرة قواد مشهورين مثل بربروسا وخير الدين ، وكان قد عين أدميرالا فى مصر مكافأة له على خدماته السابقة ، الا أن القائد التركى وضع تقديرات متدنية لقدرات البرتغاليين •

وقامت أقوى معركة فاصلة بين الأسطولين فى المياه الاقليمية لمسقط انتصر فيها البرتغاليون مرة أخرى ولاذ سيدى على بالفرار الى الهند خوفا من اعدامه فى حالة العودة الى اسطمبول وبقى يتنقل بين سورات والمـــدن الاخرى فى الهند لمدة ثلاثة أعوام عاد بعدها الى اسطمبول حيث وجد أن القضية قد خفت حدتها فأحيل هو وخمســـون آخـــرون من مرافقيـــه الى التقاعد •

ولمدة تزيد عن عشرين عاما كانت المياه الخليجية هادئة من أية محاولة تركية مستجدة • ولكن فى عام ١٥٨٠ م وصلت شـــائعات الى مســـقط بأن الأتراك يستعدون لحملة بحرية يتم تجهيزها فى عدن • الا أن قائد الحامية البرتغالية فى هرمز لم يصدق تلك الأنباء ، وبرغم محـــاولات والى مسقط التأكد من مدى صحة تلك الأنباء الا انه لم يتم اتخاذ اجراءات دفاعية واقية لتلك الحملة فى مسقط •

كان قائد الحملة التركية تلك مثابر تركى اسمه سير على بيج الذى قاد حملة من أربع سفن فقط من عدن فى أغسطس ١٥٨٠ م • وكان وصوله الى مسقط فى ٢٢ سبتمبر من ذلك العام • واتبع المغامر التركى تكتيكا جـــديد

لتحقيق الانتصار ، فبدلا من مهاجمة مسقط من الساحل فقط ، فانه نزل بجزء من وحداته تقدر بـ ١٥٠ مقاتل فى قرية سيداب فى الجانب الخلفى من مسقط ، ووزع ليلا تلك الوحدات على أبواب سور مسقط الثلاثة على أن يبدأ الهجوم برا من الخلف فى نفس الوقت الذى تبدأ السفن باطلاق نيرانها من الأمام .

وبرغم أن عدد البرتغاليين فى مسقط فى تلك الفترة كان يصل الى ٥٠٠ شخص الا أن ٧٠ شخصا منهم فقط كانوا قادرين على حمل السلاح . وأدى الظهور المفاجىء للعدو من الأمام والخلف الى اثارة البلبلة بين صفوف المدافعين والمدنيين الذين هرب أكبر عدد منهم مع أسرهم الى مطرح .

وأدرك على بيج بعد تحقيق انتصار سريع انه ليس من مصلحته البقاء كثيرا فى مسقط خوفا من قدوم نجدات للبرتغاليين ، فاكتفى بالغنائم التى استطاع جمعها فى يوم واحد وبعد شحنها على السفن توجه الى عدن ، ليقوم بعدها بغارات خاطفة على المواقع البرتغالية فى شرق افريقيا ، الا أنه أثناء حملته عام ١٥٨٩ وقع أسيرا بيدى قائد الحامية البرتغالى فى ممباسا : دوم داسوزا كوتينهو ونقل الى لشبونة حيث تنصَّر ومات ربما من أثر التعذيب الذى لقاه .

الصراعات الأوروبية فى مياه الخليج :

خلال الفترة من آخر حملة تركية سنة ١٥٨٠ الى ١٦٢٠ بداية الصراع البرتغالى مع القوى الأوروبية الأخرى ، بقيت المدن الساحلية على ضفاف عمان هادئة بالنسبة للبرتغاليين ، وقد تعلم البرتغاليون درسا من الحملة التركية على مسقط عام ١٥٨٠ ، فبدأوا بتقوية استحكاماتها عن طريق بناء قلعتين ضخمتين على جانبى الميناء فى مسقط هما قلعة سان جوا (جلالى حاليا) وانتهوا منها عام ١٥٨٧ ثم قلعة كابيتان (ميرانى حاليا) انتهوا من بناءها عام ١٥٨٨ م .

وخلال فترة الهدوء النسبية كانت الملاحة العمانية ودور البحـــارة العمانيين فى نمو متزايد • وفى عام ١٦١٥ م ، أصبح الأســطول التجارى لصحار ينافس أسطول مسقط ، الأمر الذى كان يقلق البرتغاليين • وفى نفس العام أو بداية ١٦١٦ م قام والى صحار محمد بن مهنا بهجوم كاسح على السيب التى كانت خاضعة لنفوذ الأمير عمير بن حمير حيث قتل شقيقه على ابن حمير • وقد آثر البرتغاليون مساندة الأمير عمير بن حمــير فى حملته الانتقامية ضد والى صحار ، فقدموا اليه عوضا بحريا بأسطول مكون من ٥ سفن بقيادة دوم فاسكودا جاما انضم اليه فيما بعد أســطول مكون من ٦ سفن بقيادة دوم فرانسيسكو وليم الذى جاء بسفن من جوا مركز نائب الملك والحاكم العام للسلطات البرتغالية فى الشرق • وقد انتصرت الحملة المشتركة حيث قتل الوالى محمد بن مهنا وقام البرتغاليون بنهب المدينــة وسبى النساء قبل اشعال النيران فى المدينة وتدميرها تماما •

الفصل الثانى

الدولة العمانية فى عهد دولة اليعاربة

نشأة الامبراطورية العمانية فى عهد اليعاربة :

تحرير الأراضى العمانية من السيطرة البرتغالية :

تكاتفت مجموعة من العوامل الداخلية والخارجية لتساهم ليس فى طرد البرتغاليين الغزاة من الأراضى العمانية فقط ، بل الى نجـاح العمانيين فى انشاء أول امبراطورية لهم فى تاريخهم الذى تمتد جذوره الى عدة قرون قبل الميلاد .

ومن أبرز العوامل الداخلية ظهور قيادات وطنية قوية استطاعت أن توحد الكلمة وتزيل الخلافات الداخلية وتتمتع بمزايا شخصية فريدة ، منها الايمان بالله والتضحية بالذات والعمل المتواصل الدؤوب دون كلل أو بأس . كما ان تطور الوعى بين السكان ووحدة كلمتهم ضد العدو المشترك سـاعد كثيرا على انجاح مهمة تلك الزعامات الوطنية .

وكانت العقيدة الدينية والمتمثلة بالجهاد فى سبيل الله من العـوامل الملهمة فى نجاح تلك القيادات ، ذلك أن الانسان المسلم عندما يحارب عدوا غير مسلم ، فان السعادة تمتلك جوارحه سواء أدت الحروب الى النصر أو الشهادة . والى جانب تلك العوامل الفكرية كانت الأداة تجارى الأهداف . تلك الأداة كانت تتمثل فى قوة البحرية العمانية التى نمت عبر عدة قرون . وكذلك وعى القيادات الوطنية بضرورة تقوية البحرية وتدريب الجنـود وتقوية الاستحكامات قبل وأثناء الخوض فى الحروب ضد العدو .

أما العوامل الخارجية والظروف الاقليمية والدولية التى ساهمت فى نجاح جهود المسلمين العمانيين ضد عدوهم البرتغالى هى أولا : صراعات الدول الأوروبية ببعضها فى مياه الخليج • فبرغم ان الانجليز لم يقدموا أية مساعدة للعمانيين فى حروبهم ضـد البرتغاليين الا أن صراعاتهم ببعضهم واتخاذ الانجليز موقف الحياد فى الصراعات العمانية البرتغالية ، قد أدت بلا شك الى اضعاف قدرات البرتغاليين فى النمو والحـد من سـيطرتها ونفوذها فى مياه الخليج •

ومن العوامل الخارجية الأخرى سقوط هرمز بيد الانجليز عام ١٦٢٢ • اذ أن سقوط هذه المدينة أدى الى زوال السيطرة البرتغالية عن أهم معقل لهم فى الخليج وبالتالى خلق المناخ النفسى لظهور حركات تحرير الموانى من كل سيطرة برتغالية •

لقد تم انشاء الامبراطورية العمانية عبر مرحلتين أساسيتين ، تمثلت المرحلة الاولى فى طرد البرتغاليين من المدن العمانية السـاحلية الى جانب تحقيق الوحدة الوطنية وتأسـيس حكم مركزى شـامل على كافة التراب العمانى •

وتمثلت المرحلة الثانية فى تحقيق الفتوحات العمانية فى المدن الساحلية على ضفتى الخليج وفتوحات أخرى فى الموانىء المهمة على الساحل الشرقى من افريقيا • كانت أداة المرحلة الأولى أساسا القوات البرية بينمـا كانت أداة المرحلة الثانية القوات البحرية •

تولى تحقيق أهداف المرحلة الأولى ، الامام ناصر بن مرشد اليعربى والذى حكم عمان قرابة ربع قرن • وبرغم أنه بويع اماما بترشيح من قبل مجلس العلماء يقوده العالم الدينى القاضى خميس بن سعيد الشقصى والذى كان زوجا لأم الامام ناصر بن مرشد ، الا أن مؤثرات شخصيته وقوتهـا

واخلاصه هيأت المناخ ليتولى الامامة من بعده أبناؤه وأحفاده قرابة قرن من الزمن • وقد ساعد على انتخابه اماما الى جانب مواهبه الشخصية واتصافه بالاستقامة والنزاهة والتدين ، انتشار الفوضى فى العهد الأخير من حكم بنى نبهان • فبرغم أن سلطة بنى نبهان لم تكن قوية لفترة طويلة قبل هذه الأحداث الا أن نشأة الصراعات على الزعامة بينهم زاد من تدهور أوضاعهم وخلق الحاجة الى البحث عن زعامة جديدة • ففى عام ١٦٠٧ برز التنافس حادا بين نبهان بن فلاح وابن عمه عمير بن حمير الذى استطاع أن يحقق انتصارا على قوات نبهان فى ينقل • ولكن بموت عمير بن حمير بعد ذلك بعدة أعوام ، وقعت البلاد مرة أخرى فى فوضى كاملة •

كانت عمان فى هذه الفترة مقسمة الى مناطق شبه مستقلة فى معظم الأجزاء • وكان اليعاربة أيضا يتقاسمون تلك السلطات • فالرستاق كان يحكمها مالك بن أبى العرب اليعربى ، ونخل يحكمها سلطان بن أبى العرب وسمائل مانع بن سنان العميرى ، وسمد الشأن على بن قطان الهلالى ، وعبرى محمد بن جفير بن جابر ، وبهلى وبلاد سيت كانتا خاضعتين لسيف ابن محمد الهنائى ، وحصن الجابى كان خاضعا لنفوذ بنى هلال ومقنيات كانت خاضعة لسيف بن محمد بن جيفر ومنطقة جلفار كانت بها قلعتان احداهما تابعة للفرس تحت حكم ناصر والأخرى للبرتغاليين تحميها سفينتان برتغاليتان • والى جانب ذلك فان المدن الساحلية المهمة : مسقط ، صحار ، قلهات ، صور ، قريات ، لوى كانت خاضعة للنفوذ البرتغالى •

كان من الطبيعى أن يوجه الامام جهوده فى المرحلة الأولى نحو تحقيق الوحدة الوطنية واخضاع معظم المناطق تحت سيطرة الحكومة المركزية • ولم يفرق الامام فى ذلك بين أبناء قبيلته وزعماء المناطق الاخرى ، بل بالعكس من ذلك ، فان أولى حملاته توجهت نحو ابن عمه مالك بن أبى العرب

اليعربى حاكم الرستاق ، وبعد حصار قوى حول قلعتها استطاع اخضاعها ثم توجه بعد ذلك الى النخل الخاضعة لعمه سلطان بن أبى العرب وتمكن من اخضاعها أيضا بعد حصار دام عدة أيام ، وعين عبد الله بن سعيد الشقصى واليا عليها • كما تمكن بعد ذلك من اخضاع سمائل تحت سلطته نتيجة تأييد الأهالى • وكانت نزوى من أهم المدن التى سعى الامام لاخضاعها خصوصا وأنه وردت اليه رسائل من أهلها تعلن ولاءهم له • وقاد الحملة بنفسه مرورا بازكى التى أعلنت ولائها له • ثم تمكن من اخضاع نزوى تحت سلطته حيث بنى حصنا جديدا •

وكانت لانتصارات الامام الى جانب الأخبار المتناقلة عن عدله ورأفته بالعفو عن المعارضين السابقين أثر فى اعلان مزيد من الولاء من جانب السكان فى مناطق مختلفة • فتمكن بعد ذلك من اخضاع سمد الشأن حيث استطاع الحاق الهزيمة بقوات على بن قحطان الهلالى ، كما أخضع ابرا حيث أتاه سكانها معلنين البيعة • وفى منطقة الظاهرة بذل الامام جهودا مضنية لاخضاعها قتل فيها شقيق الامام جاعد بن مرشد ، الا أن الامام تمكن من اخضاع المنطقة تحت سلطته • ولم تحد فتوحات الامام الداخلية من محاولات التمرد الا ان انتصاراته المتلاحقة كانت كفيلة بالقضاء على تلك المحاولات •

أدت الفتوحات الداخلية للامام ناصر بن مرشد وسيطرته على أهم المدن والقلاع فى عمان الداخلية والشرقية والظاهرة الى تهيئة الظروف المناسبة لبدء عملية تحرير التراب العمانى من السيطرة البرتغالية • واعتمد الامام فى حربه التحريرية على قوات القبائل البرية ولم يكن للأسطول العمانى دور رئيسى فى تلك الحملات •

توجهت أولى حملات الامام نحو جلفار (رأس الخيمة حاليا) وتعرف تلك المنطقة عند المؤرخين العمانيين بالصير • ففى بداية الثلاثينيات عندما

فشل البرتغاليون فى استئجار هرمز مرة أخرى من الحكام الفرس بعد أن فقدوها عام ١٦٢٢ قرر القائد روى فرير بناء حصن فى جلفار قرب حصن للفرس هناك • الا أن الامام ناصر وجه حملة بقيادة على بن أحمد حيث دارت معركة بين مدافعى القلعة الفارسية بزعامة ناصر الدين والمدافعين عن القلعة البرتغالية التى كانت تحميها سفينتان حربيتان ، وقد تمكن القائد العمانى على بن أحمد من تحقيق الانتصار على القلعة الفارسية برغم أن البرتغاليين كانوا يمدونها بالمؤن والذخيرة • وكافأه الامام بتعيينه واليا على حصن الصير •

وبعد ان انضمت الى القائد العمانى احدى القبائل العربية بزعامة خميس بن مخزوم الذى عاهد على بن أحمد على الاخلاص والوفاء ، استمرت الحرب التحريرية ضد الحصن البرتغالى • استطاعت القوات العمانية اجبار البرتغاليين على الاستسلام بطلب الامان فوافق القائد العمانى بشرط تسلم الحصن ، وبعد ان عين أحد أقاربه واليا عليها عاد الى نزوى منتصرا •

وفى هذه الفترة التجأ حاكم لوى الشيخ سيف بن محمد ، الذى كان فى حالة عداء مع الامام ، الى البرتغاليين طالبا مساعدته ضد قوات الامام فقام البرتغاليون بامداده بقوات صغيرة أرسلت من صحار التى كانت لا تزال خاضعة للبرتغاليين • فقام الامام بتوجيه حملة الى لوى استطاع خلالها الحاق الهزيمة بقوات الشيخ سيف بن محمد وتعيين وال من قبله •

وقد شجعت هذه الانتصارات الامام على المضى قدما لتحرير صحار ، المعقل الرئيسى الثانى للبرتغاليين بعد مسقط • فأعد حملة بقيادة واليه على لوى حافظ بن سيف الذى أمره الامام ببناء حصن جديد فى مواجهة الحصن البرتغالى •

وقد وصلت قوات الوالى حافظ بن سيف عام ١٦٣٣ الى صحار فعسكرت بقرية عمق • وبرغم ان البرتغاليين استعملوا أكبر قدر من النيران

المكثفة الا أن القائد العمانى تمكن من بناء حصن جديد كما أمره الامام • وقد كلفت هذه المعارك فقدان واحد من أبرز القادة العمانيين العسكريين : راشد بن عباد •

وأدت هذه المعركة الى تحرير صـــحار من الحكم البرتغالى برغم ان الحصن ظل تحت سيطرة البرتغاليين حتى عام ١٦٣٤ م ، وقد أدى نجـــاح تحرير صحار الى توجيه الحملات نحو صور وقريات والتى استطاع الامام تحريرها من البرتغاليين أيضا •

أما بالنسبة لتحرير مسقط ، فقد جرت أكثر من محاولة خلال الأربعينات من القرن الخامس عشر ، الا أن نجاح العمانيين كان حليفا عام ١٦٤٨ م • ففى هذه الحملة التى تولى قيادتها الشيخ مسعود بن رمضان ، اســتطاع القائد العمانى أن يفرض حصارا على مسقط خلال الفترة من ١٦ أغسطس الى الحادى عشر من سبتمبر ، وخلال فترة الحصار تمكنت القوات العمانية من الاستيلاء وهدم برج المراقبة الساحلية فى مسقط ، وهدم القلعة البرتغالية الى درجة أن البرتغاليين عرضوا البحث عن اتفاقية سلام • وقـــد تضمن العرض العمانى على الشروط التالية :

١ ــ تسليم وتدمير الحصون البرتغالية فى قريات وصور •

٢ ــ الغاء الجمارك التى كان يدفعها العمانيون لمنتجاتهم القادمة من الداخل الى مسقط وتدمير سور المدينة •

٣ ــ أن يدفع البرتغاليون جزية مقدارها ٢٠٠ ألف بارادوس •

واذ وجد البرتغاليون أن تلك الشروط باهظة الثمن حاولوا الاستمرار فى المقاومة لمدة ٦ أسابيع أخرى اضطر بعدها القائد البرتغالى دوم جولياو دا نورونها التوقيع على اتفاقية الاستسلام فى ٣١ أكتوبر • وبموجب تلك الاتفاقية وافق البرتغاليون على شروط الوفد العمانى اضافة الى هدم حصن

مطرح وتسليم كافة الممتلكات البرتغالية فى صحار ودفع جزية سنوية للعمانيين ، الا أن الحصون فى مسقط بقيت بأيدى البرتغاليين •

بموت الامام ناصر بن مرشد عام ١٦٤٩ ، فان جزءا مهما من عوامل انشاء الامبراطورية العمانية قد تم تأسيسه • ويتمثل ذلك فى نجاح الامام ناصر بن مرشد من تصفية الوجود البرتغالى من عمان باستثناء مدينة مسقط • ويمكن اعتبار هذه المرحلة مهمة وأساسية للمرحلة التالية التى تم خلالها انشاء الامبراطورية العمانية والتى تولى زمامها الأئمة اليعاربة الأوائل الذين خلفوا الامام ناصر بن مرشد وبالدرجة الأولى الامامين سلطان بن سيف الأول وسيف بن سلطان الأول •

تحرير مسقط :

وقد تحققت فى عهد الأئمة الأوائل من اليعاربة ثلاثة أهداف رئيسية :

١ — تحرير البقية الباقية من الأراضى العمانية من السيطرة البرتغالية •

٢ — توسيع سلطة ونفوذ عمان فى منطقة الخليج والمحيط الهندى •

٣ — سيطرة العمانيين على أجزاء كبيرة من شرق افريقيا واخضاعها للحكم العمانى بعد تحريرها من السيطرة البرتغالية •

وكانت الأداة الرئيسية لهذه الأهداف التطور الذى أصاب الأسطول العمانى والقدرات القتالية للمحارب العمانى • ولم تكن تلك الاهداف لتخلو من عراقيل كبيرة ••• فقد حدثت عدة أشكال من التمرد والعصيان خصوصا عند انتخاب أو تعيين امام جديد • الا أن الأئمة الأوائل من اليعاربة كانوا قادرين على درأ تلك المخاطر وقمع محاولات التمرد والعصيان وفرض السلطة المركزية مرة أخرى •

كانت أولى المهام التى التزم بها الامام سلطان بن سيف والذى خلف الامام ناصر بن مرشد ، هو تحرير بقية الأراضى العمانية من السيطرة البرتغالية • وكانت مسقط هى الهدف الرئيسى والنهائى لهذه المرحلة من الصراعات العمانية البرتغالية • ولم يكن تحرير مسقط عملية سهلة أبدا • فقبل الوصول الى مسقط كان يستلزم السيطرة على مطرح حيث كان حصنها مزودا بوسائل دفاعية قوية من قبل البرتغاليين • ومسقط نفسها كانت محاطة بسورين من الخلف تجمعها عدة حصون مزودة بالأسلحة • كما أن تحرير الميناء كان يستلزم السيطرة على القلعتين الغربية والشرقية (ميرانى وجلالى حاليا) واللتين كانت تحميها حامية برتغالية مزودة بأسلحة دفاعية متطورة الى جانب المبنى البرتغالى بين القلعتين والذى كان يسميه البرتغاليين (جريزا) وكان بمثابة مركز مؤن وذخيرة للبرتغاليين ، الى جانب وجود سفينتين برتغاليتين فى عرض البحر ، كانت تطلق نيرانها على المهاجمين • فكان من الواضح أن محاولة الامام سلطان بن سيف تحرير مسقط عملية تعتبر من الناحية العسكرية من أصعب المحاولات •

اتخذ الامام سلطان بن سيف عدم سداد البرتغاليين للخزينة السنوية ذريعة لاعلان الحرب فى أواخر عام ١٦٤٩ أو بداية ١٦٥٠ م • وبعد أن وجه نداء الى القبائل العمانية بالتجمع فى سيح الحرمل ، بدأ بشن هجماته من الأسوار الخلفية لمسقط ••• وبدأ الامام هجمات خاطفة على الأسوار الخلفية لمسقط ، كما انه فرض حصارا طويلا حول مسقط لمنع المؤن من النفاذ الى البرتغاليين ••

وكانت الحاميات البرتغالية فى الحصون الخلفية قادرة على صد الهجمات ، وتكبد العمانيون بين ٤ — ٥ آلاف شهيد فى محاولة تحرير مسقط • وقد استغل الامام كل الفرص الممكنة لتحقيق هدفه مستغلا نفاذ المؤن والذخيرة • واختار فجر يوم الأحد توقيتا ملائما لشن هجمته الحاسمة، وذلك بناء على نصيحة أحد الهندوس المقيمين فى مسقط واسمة ناروتام ،

والذى أبلغ الامام بأن البرتغاليين يكونون عادة سكارى يوم الأحد ، وكان هذا الهندوسى على خلاف مع أحد القواد البرتغاليين بسبب اصرار الأخير على التزوج من ابنته •

وقد تمكن العمانيون من شن تلك الحملة المفاجئة ونجحوا فى الاستيلاء على أسوار مسقط الخلفية ، واحتلال المدينة وكانت نتيجة انتصارهم استسلام قائد الحامية البرتغالى فى مطرح واحاطة العمانيين بعد ذلك مبنى « الجاريزا » المطلة على الساحل • فآثر القائد البرتغالى تركها واللجوء الى قلعة كابيتان (ميرانى حاليا) تاركا مسألة الدفاع عنها للحرس المكون من البلوشيين •

ولم تستطع السفينتان البرتغاليتان اللتان كان يتولى قيادتهما الكابتن براز كالديرا دورا مهما فى المعركة ، فاضطر القائد البرتغالى الى الاستسلام الكامل يوم ٢٣ يناير ، وبرغم أن الفارين من البرتغاليين وصلوا الى الهند وأبلغوا السلطات البرتغالية فى جوا ، الا أن النجدة البرتغالية عندما وصلت الى مياه مسقط ، كانت القلعتان ميرانى وجلالى قد استسلمتا للعمانيين •

ويبدو ان الامام سلطان بن سيف قد تمكن فى نفس العام من تحرير خصب من البرتغاليين •

وكانت تأثيرات تحرير مسقط بالغة الأهمية ليس بالنسبة للقضية الوطنية فى عمان ، بل أيضا بالنسبة لازدهار التجارة الدولية عبر منطقة الخليج • فتشير التقارير الاقتصادية أن تحرير مسقط قد أدى الى ازدهار فى تجارة الهولنديين ، فوصلت فى عام ١٦٥١ أحد عشر سفينة محملة بالبضائع من هولندا الى جمبرون ، المركز التجارى للهولنديين فى الخليج • كما ان الامام سلطان بن سيف عرض على الهولنديين استعداده للمساهمة فى نقل البضائع برا من أبو ظبى عبر القطيف الى البصرة ، مما يؤكد متانة مركز الامام واهتماماته الاقتصادية •

بداية الفتوحات العمانية :

كما سبق وان قلنا ، فان الفتوحات العمانية خارج المياه الاقليمية لعمان كانت أداتها الرئيسية الأسطول البحرى • وقبل الخوض فى تفاصيل العمليات البحرية التى امتدت فى اتجاهين رئيسيين : منطقة الخليج والمحيط الهندى وشرق افريقيا ، فانه من الأجدر الالمام ببعض المعلومات عن القوة البحرية العمانية فى عهد اليعاربة أى فى القرن السابع عشر •

وفى الواقع فانه لا توجد احصاءات دقيقة تبين عدد السفن البحرية من كل نوع ، ولكن هناك معلومات مهمة توضح نوعية تلك السفن وأنواع تجهيزاتها ، كما أنه من المعلوم أن حكام عمان فى أوقات الحرب كانوا يعتمدون على السفن التجارية الخاصة كأداة معاونة فى نقل الجنود والأسلحة والمؤن •

ويمكن تقسيم قطع الأسطول البحرى لعمان فى عهد اليعاربة الى ثلاثة أنواع : قوارب أو سفن للنقل الخفيف ، سفن متوسطة الحجم تصلح أساسا كأداة رئيسية للنقل الخارجى ثم سفن تجارية وحربية كبيرة بعضها مزودة بعشرات المدافع • والسفن أو القوارب الخفيفة عرفت أنواعها بالهورى والماشوا والعبرة والبقارة ، وهى سفن صغيرة تصلح لنقل المواد من السفن الكبيرة الى الشواطىء فى المياه الضحلة ، ومعظمها لا تستعمل الشراع ، ثم السفن المتوسطة : البغلة وهى تشبه البدن والبوم والسمبوك والجالبوت وهى سفن شراعية كانت تقوم برحلات النقل التجارى فى المحيطات •

وابتداء من امامة سلطان بن سيف الذى خلف الامام ناصر بن مرشد عام ١٦٤٩ ، زاد الاهتمام نحو تطوير البحرية العمانية وتحديثها وأعقبه فى ذلك معظم الأئمة من اليعاربة فيما بعد • ونتج عن هذا الاهتمام امتلاك الأسطول العمانى لسفن على الطراز الأوروبى كانت تبنى فى موانىء الهند مزودة بمدافع وأسلحة ثقيلة •

وبمرور الوقت وبنهاية القرن السابع عشر ، أى بعد حوالى ٥٠ عاما من الجهود المضنية ، أصبحت البحرية العمانية أقوى بحرية فى المحيط الهندى باستثناء بعض السفن الأوروبية الضخمة • وكانت قادرة على ارهاب الأعداء فى المنطقة والملاحين الأوروبيين على حد سواء وأصبح الأسطول العمانى يتولى مسؤولية رئيسية فى منح الحماية للتجارة الدولية عبر المحيطات •

وتأتى التقارير أكثر دقة فى نهاية عهد الامام سيف بن سلطان الذى توفى عام ١٧١١ بعد حكم دام حوالى ٣٢ عاما • فتشير التقارير الى أن السفن العمانية كانت رباعية الأشرعة ويقول هاملتون انه فى عام ١٧١٥ فترة حكم الامام سلطان بن سيف الثانى كانت القوة البحرية للدولة تتشكل من سفن أوروبية الطراز ، احداها مزودة بأربع وسبعين مدفعا واثنتان بستين مدفعا ، وواحدة بخمسين مدفعا و ١٨ سفينة كل منها مزودة بـ ٣٢ الى ١٢ مدفعا • ومجموعة أخرى بثمانية الى أربعة مدافع •

ويقول بادجر ان عدد السفن فى عهد الامام سيف بن سلطان بلغت ٢٨ سفينة • أما السالمى فيورد أسماء للسفن العمانية ويقول أنها سميت : الملك ، الفلك ، وكعب رأس والناصر والوافى ، وان سفينة الملك كانت مزودة بثمانين مدفعا • ولم يتوان الامام سيف بن سلطان من الاستعانة بالخبرات الأوروبية فى سبيل تسيير تلك السفن ، فقد عرف ان الامام عين مجموعة صغيرة من البحارة الانجليز للعمل على السفن العمانية •

وقد توجهت الحملات العمانية صوب العديد من المناطق فى المحيط الهندى والخليج وشرقى افريقيا على شكل هجمات خاطفة فى البداية قبل أن تتحول الى فتوحات مستقرة ، وقبل أن تصبح تلك المناطق جزءا من الامبراطورية العمانية • وتجدر الاشارة هنا بأن التواجد العمانى فى الخليج والمحيط الهندى وعلى سواحل شرق افريقيا سبق بمراحل عمليات الحملات البحرية ومحاولات الاستقرار والفتوحات •

ففى منطقة الخليج والمحيط الهندى كان البحارة العمانيون كما أسلفنا يلعبون دورا بارزا فى عمليات النقل التجارى الدولى •

أما فى شرق افريقيا . فمنذ الأزمنة القديمة دأب الملاحون العمانيون على تسيير رحلاتهم وفق الظروف المناخية السائدة • فخلال فترة الرياح الموسمية القادمة من الشمال الشرقى خلال أشهر ديسمبر الى مارس من كل عام كان البحارة العمانيون يتجهون بسفنهم الى سواحل شرق افريقيا ، وخلال فترة موسم الرياح الجنوبية الغربية وخلال أشهر أبريل حتى أواخر سبتمبر كانت تلك السفن تعود الى شبه الجزيرة العربية محملة فى ذهابها وايابها بالبضائع التى كانت محل تداول •

وأثناء تلك المبادلات التجارية بين البحارة العرب وسكان شرق افريقيا والتى كانت عناصرها الذهب والزجاج ، نتجت المحاولات الأولى للاستقرار المؤقت المحدود فى سواحل شرق أفريقيا • ثم بدأت موجات الهجرة العمانية تتتابع منذ القرن الهجرى الأول نتيجة الاضطرابات السياسية التى شهدها العالم الاسلامى بعد وفاة الرسول (صلعم) •

وتقول الروايات أن عرب عمان نجحوا فى تأسيس بعض الامارات العربية فى الشرق الأفريقى أثناء العشرين سنة التى تلت وفاة النبى (صلعم)، كما ان الاضطرابات التى حصلت فى بداية العهد الأموى قد أدت الى لجوء الحكام العمانيين عام ٦٨٢ هـ الى بلاد الزنج • وفى عام ٦٩٥ هـ أدت الخلافات السياسية بين الخليفة الأموى عبد الملك والزعماء العمانيين من أبناء الجلندى الى هجرة مجموعة من قبيلة الازد العمانية الى سواحل شرق افريقيا ومن المعتقد انهم استقروا فى جزيرة مافيا •

وقد أدت هذه الموجات المتلاحقة من الهجرة الى بداية ظهور السيطرة العربية القبلية فى العديد من المدن فى شرق افريقيا • وقد ساعد على نشأة

الحكم العربى فى تلك المدن ضعف الحكم المركزى للقبائل الافريقية ، الى جانب تمسك العرب المهاجرين بلغتهم ودينهم ثم تزاوجهم من أبنـــاء شرق أفريقيا والذى نتج عنه ظهور جيل من المسلمين الافريقيين العرب • كما أن خبرتهم التجارية المتفوقة على خبرة أبناء شرق افريقيا منحتهم الســيطرة الاقتصادية التجارية وما ترتب عليها من نفوذ سياسى متطور •

وعندما زار المسعودى ساحل شرق افريقيا فى القرن الخامس الهجرى ، ذكر أن الامارات العربية تمتد من مقديشيو شمالا حتى سفالا جنوبا ، وتشمل عدة موانىء مثل برادة ومالندى وسيوه وكلوه والتى كانت أهمها • ورغم ذلك لم يحاول العرب انشاء دول مستقلة فى تلك المنـــاطق ، اذ أن غالبيـــة السكان كانت من الافريقيين ، الا أن النفوذ العربى المتنامى قد هيـــأ لأية محاولة عربية اسلامية لفتح تلك المناطق ، خصوصا الكراهية التى كان يكنها العرب للبرتغاليين الذين تمكنوا من الاستيلاء على معظم تلك المدن •

ولهذه الاسباب عندما نجح الامام سلطان بن سيف من تحرير المـــدن العمانية كلها من السيطرة البرتغالية ، فان أخبار تلك الانتصارات قد حفزت أبناء تلك المدن وخصوصا أهالى ممباسا الى طلب النجدة من الامام سلطان ابن سيف لتحريرهم من السيطرة البرتغالية • وقد قرر الامام سلطان بن سيف الذى انتقل من سياسة الدفاع الى الهجوم فى صراعه مع البرتغاليين التجاوب مع نداء العرب المسلمين المقيمين فى تلك المناطق • فوجه عام ١٦٥٥ أسطولا مكونا من عدة سفن لمهاجمة المستعمرات البرتغالية فى زنجبار وباتا واستطاع الاسطول العمانى من تدمير استحكاماتها وكنيستها والاستيلاء على الغنائم •

وبرغم أن هذه الحملة لم تتمكن من فتح تلك المناطق وضمها الى عمان ، الا أن نجاح الحملة قد دفع بأهالى تلك المناطق الى اعلان تمرد شامل ضد

السلطات البرتغالية فى تلك المناطق • وقد تمكن البرتغاليون بعد ذلك من ارسال حملة بقيادة فرنسيسكو سيكاساسى كابوا لقمع التمرد والانتقام من المسلمين الثائرين •

كما أن جزءا من حملة عام ١٦٥٥ توجهت نحو التواجد البرتغالى فى المحيط الهندى ، وقد تمكنت الحملة فى بومباى ، والتى كان يسميها العرب جلابه (بضم الجيم) من جمع الغنائم •

أصبح مهاجمة التواجد البرتغالى فى المحيط الهندى وشرق افريقيا ومحاولة تحرير تلك المناطق وضمها تحت الحكم العمانى سياسة ثابتة للامام سلطان بن سيف الاول • فقام فى عام ١٦٦٠ م بمبادرة جديدة ضد البرتغاليين واستطاعت الحملة العمانية من الاستيلاء على فازا وممباسا •

وكان من نتائج هذه الحملة ضم ممباسا رسميا الى سلطة الحكم العمانى وتعيين الشيخ محمد بن مبارك واليا على ممباسا • وبالتالى يمكن اعتبار هذه الحادثة بمثابة أول اعلان لقيام الامبراطورية العمانية ، ذلك برغم أن البرتغاليين تمكنوا فى العام التالى من اعادة اخضاع ممباسا وحاولوا هذه المرة استرضاء المسلمين بتعيين مسلم : مهنا اغو •

خلف الامام بلعرب والده سلطان بن سيف الاول حوالى عام ١٦٦٨ • وبرغم ان هذا الامام لم يقدر له حكم طويل اذ مات منتحرا حوالى عام ١٦٧٩ نتيجة صراعه القوى على السلطة مع أخيه سيف بن سلطان ، الا أنه خلال حكمه الذى أمتد ما يقارب من عقد كامل آثر على نتبع منهج والده فى محاربة البرتغاليين شرقا وغربا ، بل ان الامام بلعرب وسع من دائرة أهداف انشاء الامبراطورية فى محاولة لضم مناطق فى الخليج خاضعة للبرتغاليين • فوجه عام ١٦٦٩ حملتين صوب قشم التابعة للبرتغاليين وهرمز التابعة للفرس •

وفى نفس العام أعد الامام أسطولا من ٢٨ سفينة حربية لتحـرير ممباسا من السيطرة البرتغالية وأقسم بتحقيق هذا الهدف أو الموت دونه • وكانت قوة الحملة كبيرة الى درجة أن الامام تشجع الى توجيه الحمـلة جنوبا الى موزمبيق فى محاولة لتحريرها أيضـا برغم أن الحملة لم تحقق هدفها هذه المرة بسبب الكثافة النـيرانية من الحامية البرتغالية فى قلعتها بقيادة جاسبارا دسوزا دو لاكيردا •

وفى العام التالى أرسل الامام بلعرب حملة الى مدينة دبو فى الهنـد والتى كانت تخضع للحكم البرتغالى • وقـد استعمل العمانيون وسـائل تكتيكية معقدة ، فقد نزل الجنود ليلا فى المدينة فى جنح الظـلام وفى وقت الفجر ، وعندما فتحت أبواب القلعة اندفع العمانيون الى الداخـل ليقابلوا المدافعين البرتغاليين •

ولمدة ٣ أيام متتالية كان العمانيون يجمعون الغنائم ، ولم يجد القائد البرتغالى وسيلة لدرأ المخاطر سوى اطـلاق سراح المساجين من العبيـد ومنحهم الحرية مقابل الدفاع ضد العمانيين • ونتيجة لذلك تمكنت القوة البرتغالية المكونة من حوالى ٤٠٠٠ جندى وسجين من قتل حوالى ألف عمانى واجبار الباقين على الفرار •

وكما أسلفنا ، فإن الأئمة اليعاربة استطاعوا أن ينتقلوا من موقع الدفاع الى الهجوم ضد المراكز التجارية البرتغالية ، ولكن فى عام ١٦٧٣ م حاول البرتغاليون أن يتبنوا سياسة الهجوم مرة أخرى • وقام نائب الملك فى جوا بارسال أسطول ضخم هدفه تمشيط السـفن العمانيـة فى المحيط الهندى واظهار التفوق البرتغالى • وغادر الاسطول البرتغالى فى سبتمبر من هذا العام ولكنه عند وصوله الى مسقط تأكد عدم قدرته على مواجهـة بطاريات الدفاع القوية فى قلاع مسقط ، فقرر بدلا من ذلك انزال القـوة

فى قرية سداب قرب مسقط ونجح فى التوغل حتى الأسوار الخلفية لمسقط ثم عاد ادراجه •

ولم يقف الامام موقف المتفرج فسرعان ما جهز أسطولا من عشرة سفن تجارية فى ديسمبر من نفس العام وبعد تحويلها الى سفن عسكرية توجهت صوب الهند وتمكنت من تدمير معظم سفن الأسطول البرتغالى التى وجدتها قرب دبو • وفى شهر فبراير من العام التالى ١٦٧٤ م ، أرسل الامام قوة عمانية من ٦٠٠ مقاتل الى مستعمرة ياسين فى الهند واستطاعت القوة العمانية القيام بهجوم عنيف رغم تفوق الاسطول البرتغالى ثم نزول القوة وجمع الغنائم •

جهود الامام سيف بن سلطان الاول :

وبعد تلك الأحداث من الصراعات العمانية البرتغالية ، انتقلت البلاد الى صراعات داخلية بين الامام بلعرب وأخيه سيف ، وكان تأثيرها على ما يبدو عظيما على مجمل الصراع العمانى البرتغالى وحركة انشاء الامبراطورية العمانية • فلم تشهد الأعوام القليلة التالية مبادرات عمانية ضد البرتغاليين • وأدت نتائج الصراعات الداخلية الى انتخاب سيف بن سلطان الاول اماما على عمان ••• والذى استمر حكمه حتى عام ١٧١١ م ، أى ما يزيد عن ثلاثين عاما •

وتعتبر جهود الامام سيف بن سلطان الاول حاسمة فى انشاء الامبراطورية ، وفى عهده تم اخضاء العديد من المدن التجارية فى شرق افريقيا اخضاعا نهائيا للحكم العمانى ترتب عنها تعيين ولاة عمانيين •••

وفى نفس الوقت فان جهود الامام لم تتوقف أبدا عن توجيه الحملات ضد البرتغاليين فى المحيط الهندى فى محاولة لاضعاف قوتها والاستيلاء على الغنائم منها •

استغل البرتغاليون فترة الصراع بين الامام بلعرب وأخيه سيف لاسترداد العديد من المدن فى الساحل الشرقى من افريقيا ، فقامت حملة برتغالية ضخمة عام ١٦٧٨ م بقيادة نائب الحاكم بيدرو دو الميدا بالتوجه من موزمبيق نحو باتا التى كانت تحتل مكانة رئيسية بين المدن العربية فى الساحل الشرقى من افريقيا • وتمكن البرتغاليون فى هذه الحملة من اخضاع باتا واستولوا بعدها على سيو ولامو وماندا رغم مقاومتها العنيدة حيث قتل البرتغاليون حكام تلك المدن وحوالى مائتين من أعيان البلاد واتخذوا من مسجد باتا مقرا للقيادة وحولوا مسجدا آخر الى اسطبل للخيول •

كانت شخصية الامام سيف بن سلطان الاول قوية جدا ، وكان النهج العلمى الذى يسير عليه هو تقوية الاستعدادات العسكرية وتقوية الاسطول العمانى وتحديثه ليجارى أحدث الأساطيل وذلك قبل أن يتفرغ فى جهاده مرة أخرى ضد البرتغاليين • ومن المعلوم تاريخيا ان الامام سيف بن سلطان الاول كان له دور كبير فى تحديث الاسطول العمانى • ولهذا نلاحظ انه لم تقم لعمان مبادرات وحروب ضد البرتغاليين الا عام ١١٩٤ أى بعد خمس سنوات تقريبا من تولى الامام سيف بن سلطان الحكم وذلك باستثناء الحملة الصغيرة التى بعث بها فى مطلع حكمه لاسترداد باتا من البرتغاليين فى شرق افريقيا •

وقد مكنت هذه الظروف البرتغاليين من توجيه حملات أخرى لاعادة اخضاع باتا عامى ١٦٨٦ و ١٦٨٧ م واستطاع البرتغاليون فى حملة عام ١٦٨٧ على باتا أسر حاكمها ونقله الى جوا فى الهند واجباره على توقيع وثيقة التعهد بطرد العمانيين وبناء قلعتين برتغاليتين فيها • ولكن بحلول عام ١٦٩٤ م بدأ الامام سيف بن سلطان جهاده ضد البرتغاليين غربا وشرقا •

توجه الاسطول العمانى شرقا صوب الهند وبعد أن تمكنت القوات

العمانية من النزول فى داماون وجمع الغنائم توجهت صوب مدينة سالسيت • وفى هذه المدينة كما يروى هاميلتون ، تمكن العمانيون من أسر حوالى ١٥٠٠ شخص وعادوا بغنائم وفيرة الى عمان • وفى نفس الوقت فان جزءا آخر من الأسطول العمانى توجه الى ميناء كونج فى الخليج حيث تمكن العمانيون من جمع غنائم قدرت بستين ألف تومان ، كما هددوا ميناء جمبرون •

وفى عام ١٦٩٥ م استغل الامام فرصة القلاقل فى بعض الموانى الهندية ووجه حملة صوب مدن باسالور ومانجالور الغنيتين فى غرب الهند حيث تمكن من الحاق الأضرار بهما وجمع الغنائم • وعندما نما الى علمه بأن البرتغاليين يحاولون بالتحالف مع بعض حكام الفرس توجيه حملة ضد مسقط ، قام بمبادرة من جانبه فهاجم مرة أخرى مدينة مانجالور حيث تمكن من تدمير المركز التجارى البرتغالى هناك •

وفى عام ١٦٩٦ بدأت أقوى الحملات العمانية فى تاريخ دولة اليعاربة ضد البرتغاليين — هذه الحملات التى أدت الى فتح مدن عديدة فى القسم الشمالى من ساحل افريقيا الشرقى ونشأة الامبراطورية العمانية وانهاء الوجود البرتغالى •

فبناء على الرسائل والالتماسات التى وردت للامام من أهالى مومباسا ، بعث الامام فى مارس ١٦٩٦ أسطولا كبيرا يضم سبعة سفن حربية ضخمة وحوالى عشرة سفن صغيرة تحمل قوة قوامها ٣٠٠ مقاتل لمهاجمة مومباسا • كان من الواضح أمام القوات العمانية أن الاستيلاء على قلعة يسوع فى ممباسا من الأمور المستعصية ولما كان الهدف هو احتلال القلعة وتحرير ممباسا نهائيا فقد اتبعت القوات العمانية أسلوب حرب النفس الطويلة • ففى الوقت الذى تم فرض الحصار حول ممباسا والقلعة ، كانت المدافع البحرية العمانية تقصف المناطق المحيطة بالقلعة فى محاولة لعزلها والحيلولة

دون وصول المؤن والذخيرة اليها وقد ساعد على تحقيق هذا الهدف انقطاع القلعة عن البر الا عبر لسان ضيق كان باستمرار هدفا للمدفعية العمانية .

وخلال فترة الحصار التى دامت عامين و ٩ أشهر كانت التعزيزات ترد الى الأسطول العمانى من جانب ، وكان البرتغاليون من جانبهم يبعثون بحملات بحرية فى محاولة فك الحصار ، وبعد سبعة أشهر تقريبا تناقص عدد اللاجيئين فى القلعة من ٢٥٠٠ رجل الى ألف وخمسمائة ، وعدد الجنود البرتغاليين من ٥٠ مقاتل الى ٢٠ مقاتلا وذلك نتيجة انتشار الأمراض ونقص كمية المؤن .

وفى هذه الفترة وصلت حملة برتغالية مكونة من أربع سفن تحمل سبعمائة وسبعين رجلا ، ولكن الحملة البرتغالية لم تتمكن سوى امداد القلعة ببعض الذخيرة والغذاء ودخول حوالى مائة مقاتل لمساندة الحامية البرتغالية .

ولكن فى بداية عام ١٦٩٧ انتشر الطاعون بين المدافعين ولم يبق من آفراد الحامية الا عشرين رجلا ... وفى سبتمبر من عام ١٦٩٧ قدمت نجدة برتغالية أخرى من قاعدتها فى موزمبيق وتمكن قائدها من دخول القلعة الا أنه مات فيها فى نوفمبر من نفس العام . وبعد عدة أسابيع قام أسطول برتغالى ثالث بمحاولة فاشلة لفك الحصار الذى استمر عاما آخر . وفى منتصف ديسمبر من عام ١٦٩٨ وجد الأسطول البرتغالى القادم من جوا مركز نائب الملك ، أن القلعة بات يرفرف عليها العلم العمانى الأحمر .

كان لسقوط قلعة يسوع أثر كبير فى نفوس المسلمين والعرب واظهار تفوق الأسطول العمانى على الأسطول البرتغالى . وفى العام التالى نجح الامام سيف فى تحرير عدة مدن أخرى من السيطرة البرتغالية ، حيث تمكن من تحرير بمبا وكلوه وباتا وزنجبار ، وعين الشيخ ناصر بن عبد الله واليا على

تلك المدن من مقره فى ممباسا • وهكذا نشأت أول امبراطورية عمـانية فى التاريخ • وبقيت تلك المدن خلال البقية من عمر الامام سيف خاضعة كلية للعمانيين برغم الحملات الفاشلة التى بعثها البرتغاليون من لشبونة مباشرة خلال أعوام ١٦٩٩ و ١٧٠٣ و ١٧١٠ م •

وخلال المدة الباقية من عمر الامام سيف بن سلطان وبعد اخضـاع الجزء الشمالى من ساحل شرق افريقيا ، انحسرت موجة الحروب الى حـد كبير • وعندما نما الى علم السلطات العمانية نبأ تواجد أسطول برتغـالى قرب رأس الحد فى المنطقة الشرقية من عمان قام والى مطرح بارسال أسطول عمانى لدرء الخطر فى ١٣ مايو من عام ١٦٩٨ م •

وبرغم أن النصر فى هذه المعركة كان للبرتغاليين ، فان الامام سرعان ما قرر توجيه حملة انتقامية فى العام التالى صوب المركز التجارى البرتغالى فى سالسيت فى الهند • وقد تمكن الاسطول العمانى من تكبيـد البرتغاليين خسائر فادحة وابقاء حامية عمانية مكونة من ٣٠٠ رجل لمراقبـة التحركات البرتغالية • ولم تنحصر أعمال الامام سـيف بن سـلطان الاول فى المحيط الهندى وشرق افريقيا فقط ، بل انه فى العقد الأخير من القرن السابع عشر تمكن من انزال قوة عمانية فى جزيرة البحرين التى كانت خاضعة للحـكم الفارسى فى تلك الفترة •

وتعتبر فترة حكم الامام سيف بن سلطان الاول الذى كان أقوى أئمة اليعاربة فى التاريخ العمانى ، نقطة تحول فى التاريخ العمـانى • وفى عهده زادت الاهتمامات ببناء دولة تساير المقتضيات الحضارية • ففى الداخل وجد الاستقرار فى عهده وقام بالعديد من أعمال اصلاح الأوضاع الزراعية عن طريق تعمير مجموعة من الأفلاج • ويقول الرحالة لوكـير عام ١٧٠٥ م بأن السفن العمانية كانت تصنع فى سورات وبعضها فى نهر أندوس بالهند والتى

لم يعرف عنها الأوروبيون الا قليلا • كما انه أحصى فى ميناء مسقط وحده ١٤ سفينة حربية ••• وكانت السفن الاخرى التى تمخر البحار كبيرة واحداها تحمل ٧٠ مدفعا •

خلف الامام سيف بن سلطان الاول ابنه سلطان حوالى عام ١٧١١ واستمر حكمه زهاء ٨ سنوات قام خلالها ببناء قلعة حزم الشهيرة التى اتخذها مقرا لسكناه • وبرغم الفترة القصيرة لحكم الامام سلطان بن سيف الثانى فان البلاد شهدت استقرار ونموا متزايدا ، كما أن التجارة الدولية شهدت نموا متعاظما •

وفى مجال شئون الامبراطورية العمانية ، بقيت كافة المدن التى افتتحها العمانيون فى الجزء الشمالى الشرقى من افريقيا ، خاضعة للحكم العمانى • بل أن عدة جزر فى الخليج فى هذه الفترة وقعت تحت حكم العمانيين • كما أن الامام سلطان بن سيف الثانى قام بحملة مجددة عام ١٧١٧ ضد البحرين وتمكن من تقوية الحامية العمانية هناك • أما فى مجال حروبه ضد البرتغاليين فقد حدثت عدة معارك مع الأساطيل البرتغالية الا أن تلك المعارك لم تكن ذات طبيعة استراتيجية •

ففى فبراير من عام ١٧١٤ م اصطدم الأسطول العمانى بأسطول برتغالى خارج مدينة سورات فى الهند وكانت نتيجة المعركة استشهاد ٢٨ قتيلا وجرح ٣٤ آخرين من العمانيين •

وفى عام ١٧١٩ م استنجد الفرس بالبرتغاليين لمساعدتهم فى محاربة مسقط نتيجة فقدانهم العديد من الجزر فى الخليج وجزر البحرين فأرسل نائب الحاكم العام من جوا أسطولا برتغاليا الى الخليج فى فبراير ١٧١٩ م •

وعندما وصلت تلك المعلومات للامام قام بارسال أسطول عمانى الذى احتدم فى معركة يوم الرابع من أغسطس أمام سواحل ميناء كونج فى مداخل

الخليج واستمرت المعركة زهاء يومين انسحب بعدها الأسطول العمانى ، الا أن الأسطول البرتغالى قام بملاحقته فى مضايق هرمز وكانت نتائج تلك المعارك استشهاد وجرح حوالى ٥٠٠ مقاتل عمانى ٠

ضعف دولة اليعاربة ونهايتها

كان موت الامام سلطان بن سيف الثانى حوالى عام ١٧١٩ م ذا أثر بالغ فى الحياة السياسية والاقتصادية لعمان ٠ فالفترة التى تلت وفاته شهدت صراعات وحروبا أهلية تعتبر أفظع أنواع الحروب الأهلية فى تاريخ عمان قاطبة ٠ كما أن نتائج تلك الحروب امتدت بصورة دراماتيكية على أوضاع الامبراطورية العمانية فى شرق افريقيا ومنطقة الخليج ٠ وقبل تناول تأثيرات تلك الأحداث على أوضاع الامبراطورية يجدر بنا تبيين ملامح تلك الأحداث التى امتدت قرابة ثلاثين عاما والتى انتهت بالعودة الى الوحدة الوطنية ونمو وازدهار أوضاع الامبراطورية العمانية بعد انتخاب أحمد بن سعيد البوسعيدى اماما على عمان حوالى عام ١٧٤٩ م ٠

بعد موت الامام سلطان بن سيف ظهرت مشكلة الخلافة ، وبرغم أن اليعاربة استطاعوا الاحتفاظ بمنصب الامامة بشكل وراثى منذ تم مبايعة ناصر بن مرشد اماما عام ١٦٢٤ م ٠ الا أن هذه المرة فان الخليفة المرشح سيف بن الامام سلطان كان صغير السن ٠ فانقسم الوجهاء الى فريقين : أحدهما يناصر انتخاب سيف اماما والآخرون بايعوا مهنا بن سلطان بن ناصر ونتج عن ذلك بداية الصراعات التى انتهت بمقتل مهنا بن سلطان فى العام التالى ٠

وبموت مهنا اختار فريق : يعرب بن بلعرب اماما ولذا بادر المناصرون لسيف الى تكليف بلعرب بن ناصر خال « سيف » العمل لانتزاع الامامة لسيف ٠ وبعد حروب دامية تمكن بلعرب من السيطرة على مسقط وسمائل ونخل وازكى ونزوى ٠ ونتيجة لذلك وافق يعرب بن بلعرب على التنازل عن الامامة ومبايعة سيف ، واستعدت البلاد لاحتفالات تثبيت سيف اماما ٠

ولكن مناسبة الاحتفالات تحولت الى كارثة • فقد قام محمد بن ناصر زعيم بنى غافر بتحريض أهالى بهلى وبنو ريام وبنو قطب والنعيم ومجموعة قبائل أخرى وكذلك الامام المخلوع يعرب بن بلعرب ضد خال الامام سيف • ونتج عنها حروب طاحنة دامت أربع سنوات كان النصر فيها لقوات محمد بن ناصر الغافرى • وفى المعارك الأولى تمكن محمد بن ناصر من أسر بلعرب بن ناصر ولى الامام سيف وبعد انتصاره على بلعرب بن ناصر أصبح محمد بن ناصر زعيم الغافريين يتصرف وكأنه وليا على الامام سيف ، فكان يصحب الامام الصغير معه فى المعارك وكذلك أسيره يعرب بن ناصر مقيدا •

تولى المعارضة بعد ذلك خلف بن مبارك زعيم بنى هناءة ، وهذه هى الفترة التى انقسم فيها المجتمع العمانى الى فريقين سياسيين : فريق الهناويين تحت زعامة خلف بن مبارك وفريق الغافريين تحت زعامة محمد بن ناصر •

وكان تكتل محمة بن ناصر يعتمد أساسا على القبائل الشمالية والظاهرة أى بنى نعيم وبنى قطب وبنى ياس ورحمة بن جابر •

أما الهناويون فكان تحالفهم يشمل أساسا قبائل الشرقية من بنى على وآل وهيبة والعوامر •

وانتهت المعارك عام ١٧٢٤ م بنصر ساحق للغافريين ، ونتج عنها مبايعة محمد بن ناصر اماما فى أكتوبر من ذلك العام • وكان يبدو أن رحى الحروب قد انتهت ولكن الهناويين استطاعوا من جديد جمع تكتلهم كما أن خلف استطاع عمل خديعة سياسية استطاع عن طريقها فك التحالف الذى كان يربط قبائل بنى ياس وبنى قطب والنعيم مع محمد بن ناصر زعيم الغافريين•

وكانت معركة صحار فاصلة فى الصراع الهناوى الغافرى • ففى هذه المعركة قتل خلف بن مبارك زعيم الهناويين من ناحية ، كما جرح الامام

محمد بن ناصر ومات على أثره فى مارس ١٧٢٨ م • وكان يبدو انه باعادة انتخاب سيف بن سلطان اماما فى أبريل ١٧٢٨ م فان الصراعات الدموية قد انتهت خصوصا وان كلتا المجموعتين من غافريين وهناويين بايعتا سيف اماما •

ولكن الذى حصل أن بلعرب بن حمير أحد أقرباء سيف تولى المعارضة وبعد أن تمكن من اقناع أهالى نزوى بالتخلى عن سيف ، سارع الى جمع قوات تمكن بها من السيطرة على سمائل وازكى والنخل والشرقية وجميع حصون الظاهرة ، وتم انتخابه اماما • وبقيت المناطق الساحلية بالباطنة والرستاق تحت سلطة سيف •

ونتيجة تدهور مكانة سيف استنجد الاخير بوالى مكران الذى أرسل اليه جنودا مسلحين من البلوش الا أن هذه القوة لم تكن كافية ضد قوات بلعرب بن حمير فواجهت الهزيمة •

وهكذا بقيت البلاد منقسمة الى سلطتين لفترة زمنية غير قصيرة • وخلال تلك الفترة كانت سلطة نادر شاه فى فارس والذى تولى الحكم عام ١٧٢٢ تزداد قوة وانتشارا فى منطقة الخليج • والذى استطاع بعد تقوية أسطوله الاستيلاء على البصرة عام ١٧٣٥ والبحرين عام ١٧٣٦ م • فقرر الامام سيف بن سلطان الثانى الاستعانة بالفرس بهدف اخضاع البلاد تحت سيطرته واستجاب نادر شاه لطلب الامام سيف والذى كانت أطماع فتح عمان واخضاعها للفرس تستولى عليه •

ففى ١٦ أبريل ١٧٣٧ نزلت القوات الفارسية خور فكان واستطاعت اخضاع رحمة بن مطر زعيم الهولة فى جلفار تحت سيطرته • ثم تقدمت القوات المشتركة فى معركة فاصلة ضد بلعرب بن حمير فى منطقة الظاهرة حيث تمكنت من الحاق الهزيمة فى قوات الامام بلعرب • ولكن نتيجة سوء

تصرفات قائد الحملة الفارسية لطيف خان ، دبت الخلافات بين الامام سيف وبينه وترتب عنها انسحاب القوات الفارسية الى جلفار •

وبمجرد انسحاب القوات الفارسية عادت الثورة ضد الامام مشتعلة من جديد • فمرة ثانية التجأ الامام الى نادر شاه • وفى هـذه المرة كانت أطماع الفرس فى السيطرة على عمان واضحة ومؤكدة وبدأ القائدان الفارسيان تقى خان ولطيف خان اللذان كانا يقودان الحملة الفارسية المكونة من ٦ آلاف مقاتل يتصرفان باستقلالية تامة عن الامام سـيف • واسـتطاعت القوات الفارسية التقدم بوحشية ضاربة واستولت على نزوى وبهلى ومسقط أيضا ما عدا قلعتيها الجلالى وميرانى الا أن صحار صمدت ضد الاحتلال بقيادة واليها أحمد بن سعيد • الا أن هذه الانتصارات الفارسية قد أثبتت لدى الامام سيف نية الفرس العدوانية ، ونتيجة الخلاف الذى دب بين الامام وقائد الحملة الفارسية تقى خان ، فان الامام انسحب بأسطوله الى بركة وعقد تحالفا مع منافسه بلعرب بن حمير لطرد الفرس • وفى نفس الوقت فان الخلافات التى دبت بين القائدين الفارسيين أدت الى قيام تقى خان بدس السم للطيف خان •

أدى الصلح بين الامامين المتنافسين الى توطيد المقاومة ضد الفرس • واستطاعت المقاومة العمانية من الاستيلاء على سمائل واجلاء الفرس عن حصارهم لصحار ثم اجبارهم للتقهقر الى جلفار فى الشمال • وانتشرت حركة المقاومة ضد الفرس فى جميع المناطق الساحلية ، كما أن السـفن العمانية قامت بقطع المؤن عن القوات الفارسية الى جانب مهاجمتها لعدة موانى فى الخليج مثل باسيدو وجزيرة قشم كما حاصروا الحامية الفارسية فى البحرين وتمكنوا من القضاء عليها • وساعد على تحقيق الانتصارات ضد الفرس قيام ثورات داخلية فيها ، فاضطر نادر شاه الى اسـتدعاء تقى خان فى مارس ١٧٣٩ للقضاء على ثورة أهالى جمبرون •

ومرة أخرى كان من الممكن ان نستقر الأمور للامام سيف بن سلطان الا أن ضعف شخصية الامام سيف واهتمامه بحياته الخاصة أجبرت العديد من المشايخ والقضاة الى انتخاب سلطان بن مرشد اليعربى اماما فى فبراير من عام ١٧٤٢ ، وبعد أن أعلنت ازكى وسمائل ونزوى وبهلى وأماكن أخرى خضوعها للامام الجديد تقدم بقواته نحو العاصمة رستاق وتمكن من اخضاعها واجبار الامام سيف اللجوء الى مسقط •

ومرة ثالثة فان الامام سيف برغم التجارب المريرة التجأ الى نادر شاه ووصل الوفد العمانى الى أصفهان فى ربيع ١٧٤٢ م • وفى سبتمبر من نفس العام خرجت الحملة الفارسية الثالثة وقوامها ٦٠٠٠ مقاتل بقيادة ميرزا محمد تقى خان ، وبعد وصولها الى جلفار توجه الامام سيف لملاقاتها مما أعطى الفرصة للبحارة العمانيين بأن يتطوعوا لوضع قطع سفنهم فى مسقط لمناصرة الامام سلطان بن مرشد • وتوزعت خطة الهجوم على أن يتولى أسطول فارس بقيادة كلب على خان محاصرة صحار وأن يقوم ميرزا تقى خان بالتعاون مع سيف بالتوجه الى مسقط •

صحار قلعة المقاومة :

فى هذه الفترة من المهم الاشارة الى دور صحار فى تزعم المقاومة ضد الفرس وتخليص البلاد من السيطرة الأجنبية وتوحيدها • فقد تولى زمام المقاومة أحمد بن سعيد مؤسس دولة البوسعيديين والذى كان الامام سيف قد عينه واليا على صحار • وقد استطاع هذا الوالى أن يبرهن عن قدراته القتالية والدفاع عن صحار أثناء الحصار الذى فرضه الفرس عليها إبان حملتهم الثانية التى قادها تقى خان عام ١٧٣٨ م • وبدأت شخصيته تعلو تدريجيا وأثناء الحملة الفارسية الثالثة فرض الحصار على صحار بحرا وبرا وامتدت فترة الحصار ٧ أشهر •

وقد أدرك الامام سلطان بن مرشد أهمية هذا الدفاع المستميت من

جانب الوالى فبادر بجمع قوة كبـيرة من عرب الظاهرة وبنى غافر وأهالى الرستاق وتقدم الى صحار بهدف مناصرة الوالى أحمد بن سعيد وبعد أن تمكن من شق طريقه عبر خطوط المحاصرين والانضمام الى الوالى أحمد بن سعيد ، فان جرحا اصابة أثناء تلك العملية أودى بحياته حوالى عام ١٧٤٤م •

وقد ترتب عن موت الامام سلطان بن مرشد بأن أصبح الوالى أحمـد ابن سعيد زعيم الحركة الوطنية • وبرغم أن الحصار الطويل حول صـحار برا وبحرا أدى الى نقصان فادح فى المؤن والذخيرة ، وبرغم أن الفـرس كانوا يدعمون أسطولهم بشتى الوسائل الا أنهم لم يتمكنوا من الاسـتيلاء على صحار الأمر الذى كلف العمانيين حوالى ثلاثة آلاف شهيد •

ونتيجة لهذه المقاومة الصلبة يئس القائد الفارسى من السيطرة على صحار فبعث الى نادر شاه طلبا بالموافقة على عقد صلح مع الوالى أحمـد أبن سعيد وقد تضمن الصلح :

١ — أن يرفع الفرس الحصار عن صحار وتغادر قواتهم عمان •

٢ — يحتفظ نادر شاه بمسقط ، وأن يدفع له الوالى أحمد الجزية •

٣ — تظل صحار وبركاء تابعة لأحمد بن سعيد •

وكان من الواضح أن الوالى أحمد بن سعيد قد اتخذ من هذا الصـلح بداية للتحرر النهائى من السيطرة الفارسية • اذ ما أن غادرت القـوات الفارسية عمان ، حتى توقف الوالى أحمد بن سعيد عن دفع الجزية وتقدم نحو بركا حيث عين خلفان بن محمد السعيدى واليا عليها ، وتمهيدا لتحرير مسقط ، حول التجارة الخارجية الى بركاء وقدم كل التسهيلات للتجار بهدف وقف التجارة مع مسقط • ثم جاءت الظروف مواتية لتحرير مسقط بعد أن مات الامام سيف بن سلطان فيها ، اذ قام نائب الامام : ماجد بن سـلطان بارسال رسالة الى شيراز لدعم سلطته ولكن عند عودة السفينة الى مسقط

جذبته الرياح الى صحار فعرف الوالى أحمد بن سعيد عن الرسائل المتبادلة مع نادر شاه ، ثم قام بارسال قوة قوامها أربعمائة مقاتل بقيادة واليه فى بركاء • فاضطرت الحامية الفارسية للاستسلام ثم أمرها أحمد بن سعيد بالرحيل وفى عرض البحر تم اغراقها وحرقها • وهكذا أصبح الوالى أحمد ابن سعيد يسيطر على معظم المنطقة الساحلية من صحار الى مسقط •

انتقل الوالى أحمد بن سعيد الى المرحلة الثانية من نضاله بعد تحرير عمان من السيطرة الفارسية • وتمثلت المرحلة الثانية فى تحقيق الوحدة الوطنية • وبعد موت الامام سلطان بن راشد تم انتخاب بلعرب بن حمير مرة أخرى اماما فى رستاق •

وكان الامام الجديد يلقى التأييد من معظم القبائل التى انطوت تحت التحالف الغافرى سابقا مثل بنو نعيم والقواسم ومجموعات أخرى من قبائل منطقة الصير • وبالمقابل فان معظم القبائل الهناوية والتى انتخبت أحمد بن سعيد اماما فى مسقط قبل مبايعته العامة كانت تؤازر الامام أحمد بن سعيد تقديرا لخدماته الوطنية •

وبعد معارك طاحنة بين الطرفين انتصرت قوات الامام أحمد بن سعيد وقتل الامام بلعرب بن حمير • وانحصرت المقاومة بقيادة سليمان بن محمد بن عدى اليعربى الذى كان واليا من طرف الامام سلطان بن مرشد على سمد الشأن ، الا أن سليمان آثر التنازل بعد أن خضعت معظم المدن : الرستاق ، سمائل ، ازكى ، نزوى ، بهلى للامام أحمد بن سعيد فجازاه الامام أحمد بتعيينه واليا على النخل •

هناك تضارب فى الروايات بالنسبة لتاريخ انتخاب أحمد بن سعيد ، اماما فبرغم أن بعض الروايات تشير الى عام ١٧٤٤ م لهذا الحدث ، الا أن الرحالة الألمانى نيبوهر الذى زار عمان عام ١٧٦٥ يؤكد أن الانتخاب تم عام ١٧٤٩ م اذ يشير الى أنه قد مضت ١٦ عاما على حكم الامام أحمد بن سعيد عند قدومه الى عمان •

ويبدو أن الاختلاف فى الروايات ربما يعود الى الفترة التى أعقبت موت الامام سلطان بن مرشد عام ١٧٤٤ ثم مبايعة الامام أحمد بن سعيد تلتها حروب ضد الامام بلعرب بن حمير ، وأخيرا المبايعة العامة التى ربما حصلت عام ١٧٤٩ م .

أثر الأحوال المضطربة على شؤون الامبراطورية :

خلال الثلاثين عاما من الاضطرابات التى أعقبت موت الامام سلطان ابن سيف الثانى عام ١٧١٩ ، كانت شؤون الامبراطورية تتدهور بشكل واسع ، فقد ساءت الاحوال الاقتصادية فى داخل البلاد ، كما أن عمان فقدت زعامتها فى منطقة الخليج فى فترة حكم نادر شاه الذى تمكن من استرداد سيطرته على العديد من الموانىء والسيطرة على جزر البحرين عام ١٧٣٦ م . أما فى شرق افريقيا فقد استطاع البرتغاليون عام ١٧٢٨ م الاستيلاء على ممباسا ولمدة عامين تقريبا كما امتدت سيطرتهم على طول الساحل من باتا حتى كلوه . ومن العوامل التى ساعدت البرتغاليين على تلك الانتصارات حدوث تمرد من قبل سكان ممباسا ضد الوالى ناصر بن عبد الله وقيامهم بتعيين سيسا رومبا واليا عليهم ، الا أن رفض مشايخ الجالية العربية أدى الى قيام حرب أهلية استغلها البرتغاليون لفرض سيطرتهم . ولكن سوء تصرفات البرتغاليين أدت مجددا الى ثورة عامة من قبل الأهالى وانتهزوا فرصة الأعياد فى عام ١٧٣٠ م للقيام بتمرد ضد البرتغاليين مستغلين انشغال البرتغاليين فى الاحتفال بأعيادهم . فقام الأهالى بذبح البرتغاليين أينما وجدوهم فى المدينة ومن نجا منهم هرب الى موزمبيق . وبعد نجاح السكان من طرد البرتغاليين من ممباسا بعثوا بوفد الى امام عمان الذى أرسل قوة من ثلاث سفن بقيادة أحمد بن سعيد العمورى والذى عينه الامام واليا جديدا على ممباسا . وقد تمكن الوالى أيضا من اعادة اخضاع زنجبار تحت سلطته .

وأصبحت جميع المدن والجزر فى ذلك الجزء من شرق افريقيا ترسل الجزية السنوية الى الامام •

وقد حاول البرتغاليون فى نفس العام ارسال أسطول من جوا فى الهند لاحتلال ممباسا ، ولكن سوء الأحوال البحرية حالت دون ذلك وبقيت السيطرة العمانية قائمة على طول الساحل من رأس وليجاد الى مقديشيو الا انه يجب الاعتراف بأن تلك السيطرة كانت ضعيفة •

وقد مارس حكام تلك المدن حكما شبه مستقل برغم انهم كانوا يرسلون الزكاة السنوية •

وفى عام ١٧٣٩ م قبل سقوط دولة اليعاربة بعدة أعوام ، تم تعيين محمد بن عثمان المزروعى واليا على ممباسا بدلا من أحمد بن سعيد المعمرى• وكان هذا الوالى الجديد تحدوه آمال الاستقلال التام عن السلطة المركزية فى عمان • الا أنه فى فترة حكم اليعاربة استمر فى ولائه الاسمى لتلك الدولة • وفى نفس الوقت كان يعمل على كسب ولاء أبناء ممباسا والمناطق المحيطة بها لنفسه • واستطاع عن طريق معاملة الناس بالعدل والمساواة أن يكسب عطف الشيوخ والرؤساء وأن يضمن التأييد لخططه القادمة ، وما أن انتهت دولة اليعاربة وتولى الامام أحمد بن سعيد مؤسس دولة البوسعيد الحكم حتى أعلن انفصاله الرسمى عن عمان وهذا الانفصال وآثاره سنتناوله فى الفصل القادم •

الفصل الثالث

نمو الدولة العمانية وازدهارها فى عهد البوسعيديين

نمو وازدهار الامبراطورية :

أوضاع الامبراطورية فى عهد الامام أحمد بن سعيد :

عندما تولى الامامة أحمد بن سعيد البوسعيدى بعد فترة طويلة من الصراعات الداخلية والصراعات مع الفرس ، فان الأوضاع الداخلية كانت متردية الى حد كبير ، علاوة على ذلك ، فان الأجزاء الغربية من الامبراطورية فى شرق افريقيا كانت متفككة ، وكانت تحدو بعض الولاة وخصوصا محمد ابن عثمان المزروعى فى ممباسا آمال الانفصال التام عن عمان وتكوين دولة مستقلة له • الا أنه على صعيد العلاقات الخارجية ، فان التهديدات البرتغالية كانت قد تلاشت • ولكن كان على الامام أحمد أن يبرهن عن كفاءته فى كيفية توجيه السياسة تجاه الدولتين العظيمتين بريطانيا وفرنسا واللتين كانتا فى صراع مستمر مع بعضهما •

وفى منطقة الخليج فان اغتيال نادر شاه عام ١٧٤٧ وقيام القلاقل والاضطرابات فى فارس منحت فرصة للامام أحمد للتفرغ للشؤون الداخلية، الا انه بعد نجاح كريم خان زند فى السيطرة على فارس وحكمه خلال الفترة ١٧٥٦ ــ ١٧٧٧ وهى الفترة المعاصرة لحكم الامام أحمد بن سعيد ظهرت من جديد التحديات أمام الامام أحمد بن سعيد • ومن التحديات الأخرى التى جابهت الامام أحمد ، نشأة قوة القواسم فى بعض الأجزاء من عمان الشمالية وقيامهم بحركات الانفصال بل وتوسيع قاعدة سيطرتهم على عدة مدن من شمال عمان •

وفى المجال الداخلى ، فقد كانت غالبية الشعب العمانى تؤازره وتواليه ذلك لأن الامام أحمد كان رمزا للنضال من أجل تحقيق الوحدة الوطنية ، وقد كان لهذا الاتجاه أثر كبير فى سرعة توطيد الامام أحمد لحكمه • وقد استطاع الامام أحمد أن يصل الى تفاهم مع اليعاربة بعد أن قضى على حكمهم ، بأن أقطع لليعاربة قلعتى نخل والحزم • فانحصر نفوذهم السياسى وظلوا يمارسون سلطاتهم المحلية كولاة واعتكفوا فى ممتلكاتهم بالجبل الأخضر كما عقد الامام صلحا مع ناصر بن محمد الجابرى والذى كان والده زعيما للتجمع الغافرى بأن أبقاه زعيما على منطقة الظاهرة بشرط اعترافه بالولاء للحكومة المركزية •

وهكذا شهدت عمان فى فترة حكم الامام أحمد استقرارا داخليا ساهم فى تحقيق الوحدة الوطنية وتحقيق الازدهار والنمو التدريجى • ولم يعكر صفو هذا الاستقرار الداخلى الا احداث التمرد من جانب ولديه سيف وسلطان فى الفترة الاخيرة من حكمه •

وفى المنطقة الشمالية الغربية من عمان المعروفة بالصير ، وجه الامام جهوده بهدف اخضاعها للحكم المركزى • وقد واجه الامام فى تلك المنطقة تحديات من جانب القواسم الذين عرف عنهم انهم من أهل قبائل الهولة العربية والتى كانت تقطن الجزء الفارسى من الخليج بين جمبرون ورأس برديستان ثم هاجرت الى رأس الخيمة حيث استطاعت أن توطد نفوذها وتكون لنفسها قوة بحرية مستقلة نمت تدريجيا • وبعد هجرتها عرفت بالقواسم نسبة الى قاسم جد الشيخ راشد بن مطر الذى عاصر الامام أحمد بن سعيد خلال فترة حكمه ١٧٥٨ أو ١٧٥٩ •

قاد الامام قواته صوب خصب حيث أعلن الشيخ حسن بن عبد الله الشحو ولائه للامام أحمد ، وأثناء تواجده فى خصب نما الى علمه أنباء تمرد فى المنطقة الشرقية فكلف خلفان بن محمد بالتوجه الى جلفار (رأس الخيمة)

على رأس قوة بحرية كبيرة ، وبعد عودته من الشرقية استبدل خلفان بن محمد بقائد أكثر كفاءة وهو : سيد على بن سيف الذى قاد أسطولا من أربع سفن كبيرة وعشرة سفن متوسطة الحجم وقام بفرض الحصار حول تلك المنطقة .

وكان من نتائج ذلك الحصار أن خضعت له كل الموانىء فى منطقة الصير باستثناء جلفار . كما أجبرت القواسم عام ١٧٦٢ على ارسال وفد برئاسة الشيخ صقر برفقة عمه عبد الله الى العاصمة الرستاق للتفاوض مع الامام . وكانت نتائج تلك المباحثات الاتفاق على خضوع كافة الموانى فى تلك المنطقة للامام أحمد مع بقاء القواسم فى جلفار وانهاء الحصار البحرى العمانى .

والواقع ان الاتفاقية المعقودة مع القواسم كانت ذات أثر محدود فى العلاقات بين الطرفين ... اذ أنه بمضى الوقت فان قوة القواسم كانت فى نمو مستمر خصوصا قوة أسطولهم البحرى ...

وترتب عن ذلك حدوث عدة اشتباكات أثناء فترة الامام أحمد ، كان يحاول خلالها القواسم توسيع قاعدة حكمهم والتوسع فى الأراضى العمانية الى جانب المناوشات التى كانت تحصل بين قطع من الأسطول العمانى وقطع من أسطول القواسم . كما أن قوة القواسم كانت فى تعاظم مستمر الى درجة أن قطعا من أسطولهم كانت تهاجم السفن الاوروبية ومنها السفن الانجليزية مما خلق تقاربا سياسيا بين عمان وبريطانيا وبرزت النتائج العملية لهذا التقارب فى الربع الأول من القرن التاسع عشر . على أن هذا الصراع بين الامام أحمد والقواسم لم يخل أيضا من حالات تعاون وتنسيق ، كما حصل عام ١٧٧٢ عندما وقع الطرفان صلحا بهدف التفرغ للقيام بعمليات ضد فارس فى منطقة الخليج .

سياسة الامام أحمد تجاه الخليج :

ان اهتمامات الامام أحمد فى تقوية ودعم دور الامبراطورية العمانية فى منطقة الخليج كانت تفوق الى حد كبير اهتماماته بشؤون الامبراطورية فى شرق افريقيا • ولهذا نرى أن الامام وجه جهودا مكثفة نحو توطيد مركزه فى منطقة الخليج ومجابهة القوى المختلفة •

قضى الامام أحمد الفترة الأولى من حكمه كما أسلفنا ، فى توطيد النظام والاستقرار فى الداخل وبمجابهة نفوذ القواسم فى منطقة الصير • وفى فارس فان كريم خان زند بعد أن استولى على الحكم عام ١٧٥٦ وقام بتوطيد نفوذه فى الداخل وجه جهوده صوب عمان فبعث برسالة الى الامام أحمد يطلب منه دفع جزية سنوية ، فبعث اليه الامام أحمد برده بأن عمان لا تدفع الجزية لأحد ، واذا أصر كريم خان على مطالبه ، فان عليه أن ينتزعها بالقوة •

وكان واضحا من صيغة جواب الامام أحمد ثقته بقدراته القتالية وامكانات مواجهة التطورات • وترتب عن هذا الرد حصول بعض المناوشات فاستولى كريم خان على بعض القطع البحرية العمانية ، مما أجبر الامام أحمد عام ١٧٧٦ على ارسال أسطول الى بوشهر للمطالبة بالتعويضات • كما أن الامام قام بالتحالف مع القواسم كما أسلفنا فى عام ١٧٧٢ بالقيام بارسال حملة بقيادة والى مسقط خلفان بن محمد الى بوشهر حيث تم تدمير بعض القطع الفارسية •

وخلال عام ١٧٧٥ م ، كان لمحاولة احتلال البصرة من قبل الفرس دور كبير فى اظهار قوة وقدرات الأسطول العمانى واكساب الامام أحمد هيبة قوية فى المنطقة • ففى هذا العام قرر كريم خان زند توجيه حملة ضد

الأتراك فى البصرة وقاد الحملة الفارسية صادق خان شقيق الشاه وقدرت القوات الفارسية بـ ٥٠ ألف مقاتل .

واستجابة لنداء الدولة العثمانية قام الامام بتجهيز أسطول قوى والذى شمل السفينتين رحمانى و ٩ سفن رباعية الشراع وسبعين سفينة نقل متوسطة وصغيرة بالاضافة الى ٥٠ مركبا شراعيا محملة بالرجال . وبعد أن تجاوز الأسطول العمانى مياه بوشهر فى الحادى عشر من سبتمبر رسا فى مياه شط العرب واستطاع الأسطول العمانى كسر السلاسل الحديدية فى مدخل شط العرب والتقدم بالاسطول وتدمير بعض القطع البحرية التى كان يقودها حاكم بوشهر وتسهيل وصول التموينات الى البصرة .

وقد كان لهذه الحملة التى قادها الامام بنفسه أثر طيب لدى السلطات العثمانية ، فقرر السلطان العثمانى مصطفى الثالث تقديرا لهذه المساعدة دفع ضريبة سنوية للامام أحمد من خزانة البصرة ... هذه الضريبة التى استمر سدادها حتى عهد السيد سعيد بن سلطان وكانت سببا فى توتر العلاقات فى فترات متعددة . حاول الامام بعد ذلك أن يعرض الوساطة بين العثمانيين والفرس ولكن بدون جدوى مما أجبره على العودة الى عمان فى نهاية ١٧٧٥ م . وبصفة عامة يمكن القول أن النفوذ الثابت لعمان فى منطقة الخليج فى عهد الامام أحمد بن سعيد كان يمتد حتى الاحساء والبحرين وحتى حدود ظفار فى المنطقة الغربية .

وقد كانت اهتمامات الامام فى ضمان حرية الملاحة بالخليج والمحيط الهندى كبيرة جدا ، ففى عام ١٧٧٦ م قام بارسال سفينته الرحمانى الى مانجالور فى مقاطعة ميسور بالهند للاستفهام عن سبب انقطاع شحنات الأرز الى مسقط وعندما علم الوفد العمانى أن سبب ذلك الانقطاع يعود الى أعمال القرصنة التى يمارسها القراصنة على سواحل ملبار ضد السفن التى تحمل الأرز الى مسقط ، بادر بارسال حملة تأديبية الى سواحل ملبار .

وكان من نتائج هذه الحملة قيام حاكم ميسور بارسال مبعوث من قبله الى الامام أحمد فى الرستاق لتأكيد علاقات الصداقة ولتعيين مبعوث تجارى دائم فى مسقط ليتولى رعاية العلاقات بين الطرفين • واستمر هذا التمثيل التجارى قائما فى مسقط حتى عام ١٧٩٩ م عندما سقطت مقاطعة ميسور تحت الحكم البريطانى وقتل فيها حاكمها تبو صاحب •

شؤون الامبراطورية فى شرق افريقيا :

كان التحدى الذى واجهه الامام أحمد ، من قبل محمد بن عثمان المزروعى الذى كان قد عين واليا على ممباسا فى عهد الامام سيف بن سلطان الثانى عام ١٧٣٩ م ، ذا معنى خطير اذ أن سكوت الامام عن تصرفاته كان يمكن أن يكون بداية لانهيار الحكم العمانى فى شرق افريقيا • فالنظام الذى اتبعه اليعاربة فى تيسير أمور المناطق التابعة لعمان فى شرق افريقيا كان يتمثل فى تعيين الولاة فى المناطق الأساسية • وكان الولاة يحافظون بالنيابة عن الأئمة على جمع الزكاة والخراج وارسالها الى الامام •••

كما أن الولاة كانوا يبلغون الأئمة عن أية مخاطر تهدد تلك المناطق وخصوصا محاولات البرتغاليين استرداد نفوذهم ، فكان الأئمة يرسلون أساطيلهم لمواجهة تلك التحديات • وقد مكنت الأحوال الداخلية المضطربة فى عمان ، خلال الفترة الاخيرة من حكم اليعاربة ، هؤلاء الولاة من زيادة نفوذهم الشخصى وسيطرتهم على المدن وممارستهم نوعا من الاستقلال •

وقد أدرك الامام أحمد أهمية المقاطعات الغربية من الامبراطورية ، فأرسل فى بداية حكمه عام ١٧٥٠ بسفن الى ممباسا وكيلو وزنجبار حاملة بعض الشخصيات التى قرر الامام تعيينهم كولاة • الا أن محمد بن عثمان المزروعى الذى كان قد تمكن خلال فترة تواجده من توطيد حكمه وكسب ولاء الشيوخ والأهالى ، أعلن تمرده على سلطة الامام أحمد وأوقف ارسال الأموال السنوية المعتادة •

وقد أدرك الامام مخاطر اعلان الاستقلال من جانب ممباسا ، فقام بارسال ستة من أعوانه المخلصين تحت رئاسة سيف بن خلف لانهاء استقلال ممباسا ، وقد لجأ هؤلاء الى الحيلة ، فبعد أن اتفقوا مع محمد بن عثمان المزروعى بأنهم جاءوا لمساعدته ولانتزاع حكم ممباسا من الامام أحمد وبعد أن استطاعوا كسب وده وثقته بهم طلبوا منه السماح لهم بالرحيل الى كلوه وبمبا لجمع الأعوان والمناصرين للقضية المشتركة ، وقبل اليوم المحدد للرحيل قصدوا زيارته فى القلعة بحجة توديعه فقابلهم فى قلعته واستغل سيف بن خلف الفرصة وقام باغتيال محمد بن عثمان المزروعى وقتل حاشيته الموجودة فى القلعة • الا أن هذه الحادثة لم تمنح سوى فرصة استمرار الحكم العمانى على ممباسا لعام واحد اذ أن سيف بن خلف بعد اغتياله لحمد قام بايداع أخيه على فى السجن ، الا أن عليا بعد أن تم اطلاق سراحه قاد الحركة ضد سيف وتمكن من اخراج قواته من ممباسا وأخذ ثأره باغتيال سيف نفسه •

وباستمرار حكم المزروعيين ، أصبحت ممباسا مستقلة عن عمان ومتمردة عليها • الا أن بقية المدن فى شرق افريقيا بقيت خاضعة للامام أحمد • ولم يكتف على بن عثمان المزروعى باستقلال ممباسا ، بل حاول توسيع دائرة حكمه لتشمل أهم مدينة أخرى فى شرق افريقيا • فبعث بحملة بحرية بقيادة سعود بن ناصر الى زنجبار حيث تمكنت تلك الحملة من أن تستولى على معظم أجزاء زنجبار لولا الامدادات المستمرة التى كان يتلقاها الوالى محمد بن جعد البوسعيدى الذى كان الامام أحمد قد عينه واليا على زنجبار •

ولكن سعود بن ناصر بدلا من أن يواصل الحرب لصالح على بن عثمان المزروعى ، فانه دخل فى خلاف مع سيده وآثر أن يحل محله فى الحكم ، فدبر مؤامرة لقتله وتمكن من تنفيذها عام ١٧٥٣ م • وقد مكنه ذلك من الحكم على ممباسا لبضع سنوات •

والواقع فان هذه التحركات من جانب ممباسا ، لم تؤثر تأثيرا قويا على شؤون الامبراطورية فى شرق افريقيا ، فقد استمرت القوافل التجارية ذهابا وايابا فى رحلاتها المعتادة • ويبدو أن انشغال الامام أحمد فى توطيد دعائم الحكم فى عمان ومجابهة التحديات فى منطقة الخليج قد حال دون ارسال حملة بحرية قوية لاسترداد ممباسا •

العلاقات الدولية فى عهد الامام أحمد بن سعيد :

اتسمت العلاقات بين الدولتين العظميين بريطانيا وفرنسا فى بحار الشرق بالتنافس التجارى منذ تم انشاء وكالات تجارية لهما فى القرن السابع عشر ••• واحتفظ الامام أحمد كأسلافه اليعاربة بعلاقات ودية مع كل من بريطانيا وفرنسا ، وانسجمت تلك العلاقات الودية مع الأوضاع السلمية السائدة بين الدولتين العظميين ، ولكن قيام حرب السنوات السبع بين بريطانيا وفرنسا (١٧٥٦ — ١٧٦٣) ، كانت لها انعكاساتها على بحار الشرق ، وأدت تلك الانعكاسات الى ملاحقة سفن كل طرف بسفن الطرف الآخر ، مما وضع حكام عمان فى مواقف محرجة •

وظهرت بوادر أولى تلك المواقف المحرجة عام ١٧٦١ عندما حاول الكونت داستان ملاحقة سفينة تجارية بريطانية فى المياه الاقليمية لمسقط • وكان مثل هذا التصرف يعنى الاساءة الى سيادة عمان ، فاضطر الوالى محمد خلفان فى مسقط الى اصدار تعليماته بقصف السفينة الفرنسية من المدافع المنصوبة فى القلعة ، فأجبر السفينة الفرنسية على مغادرة مياه مسقط • قام بعدها الكونت داستان بمهاجمة المركز التجارى البريطانى فى جمبرون وأسر الموجودين فيها ثم التوجه الى جزر موريتشيوسى •

وحدثت حالة مشابهة عام ١٧٧٨ ، عندما اضطرت سفينة تجارية بريطانية من اللجوء الى مسقط هربا من ملاحقات السفن الفرنسية فى

البحار • وحاولت سفينة فرنسية اخراج السفينة البريطانية من مسقط بالقوة مما اضطر ازاءها الوالى محمد بن خلفان الى اطلاق النار على السفينة الفرنسية واجبارها على مغادرة مسقط •

ورغم تلك المواقف المحرجة ، فان العلاقات الودية استمرت مع فرنسا • ووردت فى احدى رسائل الامام الى الفرنسيين العبارة الودية التالية « اننى صديق للفرنسيين وأعتبر نفسى ابنا لهم وأضع تحت تصرفهم مينائى بما فيه من ماء وماشية » كما أن علاقات عمان التجارية مع جزر موريتشيوسى الفرنسية استمرت وطيدة •

وفى عهد الامام قدمت أول سفينة تجارية من موريتشيوسى تحمل السكر ونقلت من مسقط التمور والسمك المملح والبن • كما أن السلطات الفرنسية كانت حريصة بدورها على تنمية تلك العلاقات ، وعندما حصلت أزمة السفينة « الصالح » بين الامام أحمد وفرنسا ، فان السلطات الفرنسية اتخذت كل ما من شأنه ارضاء الامام •

ففى عام ١٧٨١ ، قامت ثلاث سفن فرنسية بملاحقة السفينة البريطانية « بيجلير بيرج » التى التجأت الى مسقط • وعندما فشلت فى أسرها اتجهت الى مياه الخليج حيث قامت بالاستيلاء على السفينة العمانية « الصالح » ذات الـ ٥٠ مدفعا والتى كانت فى رحلة تجارية من الهند الى البصرة • وبعد الاستيلاء على السفينة تم بيعها من قبل المسؤولين الفرنسيين الى المهرانيين • وعندما علم الامام أنباء تلك الحادثة فانه فى الوقت الذى بعث بوفد الى موريتشيوسى لتقديم الاحتجاج والمطالبة بالتعويضات عن السفينة وحمولتها والتى قدرت بمليون ومائتى ألف روبية ، فانه فى نفس الوقت أصدر تعليماته بعد مضى شهرين بالاستيلاء على احدى السفن الفرنسية التى قدمت الى مسقط حيث تم مصادرتها وأخذ ملاحيها أسرى •

وقامت السلطات الفرنسية بعد ذلك بارسال الكابتن ماكمينزا بصحبة السفينة La Thetig الى مسقط لتقديمها هدية الى الامام تعويضا عن السفينة « الصالح » مع خطاب اعتذار من الحكومة الفرنسية •

وباستثناء تلك المواقف المحرجة ، فان السفن البريطانية والفرنسية كانت تقوم بزيارات ودية وتجارية الى مسقط لتتزود بالماء والمؤن واجراء الاصلاحات • وهكذا أثبت الامام قدراته على اتباع سياسة الحياد بين الدولتين العظميين •

وعندما توفى الامام أحمد بن سعيد فى ١٩ محرم ١١٩٨ هـ (١٥ ديسمبر ١٧٨٣ م) ، فانه ترك أحوال الامبراطورية قوية شامخة بل وزاد من هيبة عمان فى منطقة الخليج عن طريق مواقفه الحازمة ، مثل موقفه إبان الاحتلال الفارسى للبصرة ، وأرسى دعائم سياسة يقظة وحذرة بالنسبة للتعامل مع الدول الكبرى فى المنطقة •

أحوال عمان بعد وفاة الامام أحمد :

تعتبر الفترة التى أعقبت وفاة الامام أحمد عام ١٧٨٣ م وحتى تولى سلطان بن الامام الحكم عام ١٧٩٢ ، فترة حرجة فى تاريخ عمان • فخلال هذه السنوات التسع ، فان معظم الأحداث كانت تتمثل فى صراعات داخلية • ولم يبرز لعمان دور يذكر فى هذه المرحلة لتوطيد مزيد من نفوذها فى الخليج أو شرق افريقيا • الا أنه يجب التنويه أن تلك الصراعات الداخلية لم تقف حائلا فى وجه استمرار الأنشطة التجارية وتحركات السفن العمانية الى أقاصى البحار •

والصراعات الداخلية بين أبناء الامام ابتدأت فى الواقع فى الفترة الأخيرة من عهد الامام ، الا أنه استطاع كبح جماحها • فقبل وفاته بعدة سنوات قام ولداه سيف وسلطان بمحاولة لاظهار نفوذهما وبناء سلطتهما •

ومن المعروف أن ابن الامام الأكبر هلال كان ضريرا وغير قادر على التحرك ، أما ابنه سعيد فكان الامام قد منحه ولاية نزوى ولم يكن طموحا • كما أن ابنه قيس ارتضى بنصيبه فى ولاية صحار ، وكان ولداه محمد وطالب صغيرى السن • أما ولداه سيف وسلطان من أم من قبيلة حبور فكانا طموحين وقاما بأول محاولة تمرد لهما حوالى عام ١٧٨٠ بعد توطيد علاقاتهما مع القواسم وبنى نعيم وبالتآزر مع جماعة متعاونة من نخل وتمكنا أثناء هجوم ليلى على مدينة بركاء من اغتيال الوالى والسيطرة على القلعة •

وردا على ذلك قام الامام بارسال قوة قامت بقصف القلعة وأجبرت ولديه على الاستسلام ، ثم عفا عنهما الامام • كما أن تلك الحادثة أثارت غضب الامام ضد اليعاربة حيث أن الامام اعتبر أن قيام جماعة من نخل بمساعدة ولديه لم يمكن ليتحقق لولا التأييد من جانب الوالى محمد بن سليمان اليعربى •

وفى عام ١٧٨١ قام سيف وسلطان بمحاولة للاستيلاء على مسقط •

وقدما فى قوة صغيرة وطلبا من الوالى السماح لهما بالدخول فرحب بهما • وبعد دخولهما على الوالى قاما بعملية السيطرة على قلعتى ميرانى وجلالى •

وعندما أدرك الوالى مكيدتهما أشعر الامام بذلك • فقام الامام أحمد بالتوجه من الرستاق الى مسقط ، وبعد أن رفض ولداه الاستسلام ، أمر الامام بالبدء بالعمليات العسكرية • وبعث سيف وسلطان برسالة الى الشيخ صقر زعيم القواسم لنجدتهما ، وتقدمت قوات الشيخ صقر الى مسقط ، واذ أحس الامام بمخاوف من تلك الحركة من جانب القواسم ارتضى بعقد صلح مع ولديه سمح لكل منهما بالاحتفاظ باحدى القلعتين •

وبعد فترة قصيرة استطاع الامام اقناع ولديه بالاحتفاظ بقلعة الجلالى بينهما وأن تسيطر قواته على قلعة ميرانى • الا أن هذا التفاهم لم يدم أكثر من عدة أشهر قام بعدها ولداه بخديعة ضد أخيهما سعيد وتمكنا من حبسه فى قلعة الجلالى •

ولم يجد الامام بدا من مواجهة ولديه مرة أخرى بالقوة ، فقدم من الرستاق ووصل فى يناير ١٧٨٢ الى مسقط • واذ رفض ولداه الاستسلام أمر باطلاق النيران على قلعة الجلالى وتمكن سعيد بن الامام أحمد أثناء ذلك من الهروب من القلعة فاضطر ولداه سيف وسلطان الى الاستسلام ، وقام الامام أحمد باصطحاب ولده سيف وأبقاه معه فى الرستاق •

وبعد وفاة الامام أحمد بن سعيد اجتمع العلماء والمشايخ فى الرستاق حيث تم انتخاب ابنه سعيد اماما • وبايعت له جميع المناطق ، وبعد المبايعة بقيت قلاع الحزم ونخل فى أيدى اليعاربة تحت ولاية محمد بن سليمان اليعربى ، كما احتفظ قيس بن الامام بصحار • أما سيف وسلطان فقد بعثا برسالة الى زعيم القواسم لمناصرتهما فى القضاء على الامام سعيد • أما الشيخ صقر فانه بدلا من مناصرة سيف وسلطان فقد جمع قوات كبيرة

واستطاع أن يخضع بها مدن الشمال : الشارقة . والرمس ، وخـورفكان وجزيرة الحمراء تحت سلطته • وفشلت قوات الامام سعيد فى هذه المرحلة من استرداد تلك المناطق •

واذ يئس سيف بن الامام من محاولة السيطرة على الحكم فى عمـان هاجر الى شرق افريقيا حيث نزل على مدينة لامو التى لم تكن تتواجد فيها قوات للامام واستطاع السيطرة عليها ، الا أن الامام سعيد بعث بعد ذلك بقوة بقيادة ابنه حمد ، لكن حمد ما أن وصل الى لامو وعلم بوفاة عمه سيف حتى عاد ادراجه الى عمان • أما سلطان فانه هاجر الى اقليم مكران حيث أقطعه حاكمها ميناء ومدينة جوادر وحيث عاش كلاجىء لعدة أعوام وكان خلالها يأخذ نصف ايرادات الميناء لنفسه ويسلم النصـف لحاكم مكران حسـب الاتفاق بينهما •

وخلال السنوات الثلاث التالية ، تمكن حمـد بن الامام سـعيد من الاستقرار فى مسقط . حيث استطاع أن يظهر قدراته كمقاتل طموح • وعندما نشبت المعارك مجددا بين القواسم والامام سعيد عام ١٧٨٧ أدى حمد ابن الامام سعيد دورا كبيرا الى جانب قائد الحملة العمانية محمد بن خلفـان فى محاصرة المدن التى كان القواسم قد استولوا عليها سابقا • وتمكن من استرداد خور فكان وجزيرة الحمراء وفرض الحصار حول الرمس ثم عاد الى مسقط تاركا الأسطول للقيام بعمليات ضد جلفار (رأس الخيمة) •

وفى نفس الوقت فان سلطان بن الامام أحمد الذى يبدو أنه قـد مل الاقامة فى منفاه بجوادر عاد نشيطا الى مسقط ، واستطاع أن يضمن دعم زعيم قبيلة بنى جابر ، محمد ناصر الجابرى الذى كانت تربطه به صـلات النسب من والدته • واذ نما الى علم سيد حمد الاستعدادات التى كان يقوم بها عمه سلطان ، بادر بقيادة حملة ضده فى سمائل الا أنه وجد أن قوات عمه تفوق قواته فاتجه الى الرستاق للاجتماع بوالده ، ومكنت هذه الظـروف

سلطان بن الامام أحمد من التقدم صوب مسقط وجمع الغنائم أثناء حملته على مطرح • وأجبرت هذه الأحداث حمد بن الامام سعيد الى البحث عن صلح مع عمه بقيت مسقط بموجبه تحت سيطرته •

وفى عام ١٧٩٢ ، كان سيد حمد مشغولا فى اعداد حملة كبيرة لم يعرف وجهتها ، اذ أن اصابته بمرض الجدرى قد أودى بحياته •

أوضاع الدولة العمانية فى عهد سلطان بن الامام أحمد (١٧٩٣ ــ ١٨٠٤) •

أثبت سلطان ، كما وضح من خلال الأحداث السابقة ، أنه كان ذا شخصية قوية وطموحة • فقد كان الرجل طويل القامة ، قوى البنية اتصف بالجرأة والنبل مثل والده الامام أحمد • وعندما توفى السيد حمد ، أدرك سلطان بن الامام أحمد أن الفرصة أصبحت سانحة له لتحقيق طموحاته فى حكم عمان • فاستغل الفراغ الناشىء من موت سيد حمد وتمكن بمساعدة زعيم التحالف الغافرى محمد بن ناصر الجابرى من الاستيلاء على مسقط •

وقد حاول الامام سعيد من جانبه أن يعيد تثبيت سلطته فى الرستاق ، فجمع قواته وأخوته فى تحالف ضد السيد سلطان ، وتحركت القوات من الرستاق وصحار صوب مسقط الا أن القبائل الغافرية كانت قادرة على صدها • وترتب عن ذلك عقد صلح فى بركا بين الاخوة المتنازعين وتم الاتفاق خلاله على أن يبقى الامام سعيد فى العاصمة القديمة رستاق كزعيم روحى للدولة وأن يحتفظ قيس بحكمه فى صحار وأن يصبح أخوهما محمد حاكما فى السويق •

أما مسقط التى أصبحت فى هذه الفترة العاصمة الفعلية للدولة فتبقى خاضعة لسيد سلطان الى جانب بركا وأن يتولى السيد سلطان المسؤوليات السياسية للدولة • وبهذا القرار نستطيع أن نقول أن السيد سلطان أصبح

الحاكم الفعلى لعمان • فقد كانت مسقط فى هذه الفترة هى المركز التجارى الرئيسى فى عمان واليها كانت ترد أيضا الايرادات من كافة الموانى العمانية فى الخارج • كما أنها كانت القاعدة البحرية العسكرية الرئيسية فى عمان •

وبرغم أن فترة حكم السيد سلطان تعتبر قصيرة من الناحية التاريخية (عشر سنوات) ، الا أن عمان شهدت فى عهده أعظم الحوادث السياسية • ففى عهده بلغ الصراع بين الدولتين العظميين بريطانيا وفرنسا فى منطقة الخليج أوجه •

ويمكننا تقسيم فترة حكم السيد سلطان القصيرة الى قسمين رئيسيين ، الأولى امتدت حتى عام ١٨٠٠ ، كان السيد سلطان خلالها يعمل بكل همة على توسيع رقعة الامبراطورية العمانية وزيادة نفوذها خصوصا فى منطقة الخليج • أما الفترة الباقية من عمره حتى عام ١٨٠٤ م فقد كان عليه أن ينتقل الى سياسة الدفاع عن المكاسب التى تحققت فى عهده ، ومواجهة التحديات المستجدة ، من جانب القوى الاقليمية الأخرى •

ففى مجال توسيع رقعة الامبراطورية العمانية ، كانت أولى الأعمال التى قام بها سيد سلطان ارسال حملة بحرية بقيادة سيف بن على لاحتلال ميناء جوادر فى الجزء الجنوبى الغربى من فارس حيث أقام فيها عدة سنوات لاجئا سياسيا • وقد تمكن القائد العمانى الى جانب الاستيلاء على جوادر ، من الاستيلاء على قرية شهبار غربى جوادر حوالى ١٠٠ ميل والمطلة على المحيط الهندى أيضا • وقد أدى نجاحه فى تلك الحملة الى قيامه بقيادة حملة أخرى قوية ضد بنى معين فى جزيرتى قشم وهرمز على مدخل الخليج • وكانت الحملة مركزة ومنظمة الى درجة أن الجزيرتين سقطتا فى أيدى القوات العمانية •

ونظرا الى أن شيخ بنى معين كان قد استأجر ميناء بندر عباس بفرمان من الشاه . فانه ترتب على سقوط حكومة بنى معين أن تمكن السيد سلطان ابن الامام عام ١٧٩٤ م من استصدار فرمان من الشاه استأجر بموجبها ميناء بندر عباس وتوابعها مقابل ايجار سنوى قدره ٦٠٠٠ تومان وحل فى ذلك محل شيخ بنى معين •

وأدت هذه الفتوحات العمانية ليس فقط الى توسيع رقعة الامبراطورية العمانية ، بل أنها منحت عمان السيطرة الكاملة على جانبى مضيق هرمز وبالتالى السيطرة على التجارة عبر الخليج •

كانت المحطة التالية فى مخطط سيد سلطان لتوسيع رقعة الامبراطورية العمانية هى جزر البحرين التى كان يحكمها فى تلك الفترة آل خليفة وهم فرع من قبيلة العتوب تمكنوا من اقامة حكم عربى فيها عام ١٧٨٣ م •

وفى عام ١٧٩٩ بعد أن تمكن السيد سلطان من قمع تمرد من جانب قبائل الدروع وبنى نعيم فى الظاهرة قاد حملة بحرية ضخمة على رأس فرقاطته البحرية جنجافا الى جانب ثلاث سفن ثلاثية الشراع وستين بغلة واتجه بها الى البحرين • وكان لرفض العتوب فى البحرين دفع الضريبة البحرية التى كانت تتقاضاها عمان من جميع السفن المتجهة من الهند الى الخليج مبررا كافيا لاعلان الحرب ، حيث أن رفض العتوب سداد تلك الضريبة أثرت على العوائد المالية لعمان •

واذ أدرك العتوب عدم قدرتهم على مجابهة قوات السيد سلطان ، فانهم استنجدوا بفارس طالبين حمايتهم ومعلنين استعدادهم لدفع جزية سنوية اليهم • وعندما علم السيد سلطان بذلك . فانه قرر التفاوض مع الفرس ، وفى نفس الوقت عرض على حاكم فارس استعداده لاستئجار جزيرة الخرج مقابل ايجار سنوى مع سداد ايجار السنوات الخمس مقدما • الا أن جهوده

تلك مع الفرس لم تؤد الى أية نتائج • وارتضى فى النهـاية سحب قواته مقابل قيام العتوب بسداد جزء من الضرائب المتجمعة •

وفى عام ١٨٠١ ، أرسل السيد سلطان حملته الثانيـة الى البحـرين بقيادة سيف بن على الذى سبق وأن نجح فى الاسـتيلاء على جزر قشـم وهرمز من بنى معين • واستطاع القائد العمانى أن يحقق أهدافه ويسيطر على البحرين وقد تلا ذلك تعيين نجل السيد سلطان « سالم » الذى كان يبلغ من العمر ١٢ عاما واليا عليها ، الا أن السيطرة العمانية لم تستمر على البحرين أكثر من بضعة أشهر تمكن بعدها العتوب من استعادة سلطانهم •

ورغم ذلك ، فان جهود سلطان لم تتوقف ضد البحرين ، فقام بارسال حملة ثالثة عام ١٨٠٢ بقيادة سيف بن على مرة أخرى ، واستطاعت الحملة احتلال جزء من البحرين التى تمكنت من الصمود هذه المرة نتيجة المساعدات التى تلقتها من السعوديين ، فحاول السيد سلطان اكمال فتوحاته بالتعـاون مع الفرس وبعث الشيخ على على رأس وفد لمقابلة أمير شـيراز مع هدايا قيمة وقبل أن تأتيه أية مساعدات قام فى يونيو ١٨٠٢ بدعم الحملة بأسطول آخر بقيادته شخصيا وحاول لمدة شهرين متتاليين تحقيق الانتصار ، كمـا وصلته امدادات من جانب الفرس بقـوات قوامها ٢٠٠ فارس و ٢٠٠٠ من المشاة وتمكنت الحملة من تحقيق أهدافها ، اذ وافق العتـوب على قبـول السيادة الأسمية لعمان على الجزر ودفع الضرائب المقررة ، كمـا أدت الى الحاق هزيمة كبيرة فى قطع الأسطول البحرينى • الا أن السيطرة لم تدم مرة أخرى على البحرين ، اذ تمكن العتوب بالتعاون مع السـعوديين من اعادة سيطرتهم على تلك الجزر بعد فترة قصيرة •

ومن الجهود الأخرى التى بذلها السيد سلطان لتوطيد نفوذ عمان فى الخليج قيامه بقيادة حملة فى ديسمبر من عام ١٧٩٨ نحـو البصرة • وكان هدف الحملة اجبار العثمانيين على دفع المستحقات من الضريبة التى تقررت

فى عهد والده الامام أحمد مقابل المساعدات العسكرية الى قدمها لفك الحصار الفارسى عن البصرة • ولكى يضمن نجاح الحملة عقد صلحا مع القواسم فى تلك الفترة •

ولما كانت البصرة خالية من قطع أسطول بحرية قادرة على صد الهجوم العمانى ، فان والى البصرة طلب من المقيم البريطانى السيد مانستى مساعدته لصد الهجوم ، الا أن الحكومة البريطانية آثرت عدم زج نفسها فى الصراعات المحلية بين دول الخليج • وقد تمكن مستر مانستى أخيرا فى التوسط بين الطرفين والحصول على ترضية مناسبة لسيد سلطان •

وتعتبر جهود السيد سلطان فى البحرين آخر جهوده فى توسيع رقعة الامبراطورية العمانية ، اذ أن الحوادث اللاحقة وبخاصة محاولات التوسع السعودية ، قد أجبرت السيد سلطان الى الانتقال من سياسة الهجوم الى الدفاع وذلك بهدف حماية عمان ونفوذها فى الخليج من العدوان •

علاقات السيد سلطان بالسعوديين :

تعرف العلاقات بين عمان والسعوديين عند غالبية المؤرخين بالعلاقات العمانية الوهابية • ولتوضيح تلك العلاقات بصورة مفصلة تجدر بنا العودة الى الوراء لنفهم الصلة بين الحركة الوهابية والفتوحات السعودية فى أرجاء الجزيرة العربية •

تعود جذور تلك الحركة الى أحد علماء الدين محمد بن عبد الوهاب الذى ولد وتفقه فى « العيينة » فى أواسط الجزيرة العربية ، وتتلخص دعوته الدينية فى الالتزام التام بمبدأ « التوحيد » ونبذ النذور ونبذ الدعوات الى الصالحين ، والدعوة الى الله وحده سبحانه وتعالى • كما أنه اعتبر اللجوء الى غير الله والدعوة الى الأنبياء والصالحين شركا بالله وكفرا ••• وبدأ بنشر مفاهيم دعوته بين الناس واستجاب لدعوته عدد كبير من الناس •

وحدث التطور الجذرى لدعوته عندما بايعه محمد بن سعود أمير الدرعية • وترتب على هذه المبايعة تعهد محمد بن سعود بالعمل على نشر تعاليم محمد بن عبد الوهاب ••• واعتبار محاربة من يقاومها جهادا فى سبيل الله ••• وهكذا بدأت الفتوحات من جانب الأمير محمد بن سعود • وبحلول عام ١٧٦٥ م (عام وفاة محمد بن عبد الوهاب) كانت نجد كلها قد أصبحت خاضعة للسعوديين ، ونشأت فيما يعرف عند المؤرخين « الدولة السعودية الأولى » •

وقد ساهمت حركة آل سعود فى توحيد الجزيرة العربية التى كانت خاضعة اسميا للدولة العثمانية وعمليا للصراعات القبلية ، كما أن الموارد المالية المتعددة من الزكاة والعشور على الأراضى والمواشى والبضائع والخراج على المدن وخمس الغنائم ساهمت فى اثراء « بيت المال » التابع للدولة •

وكانت القبائل المحاربة تأخذ أربعة أخماس غنائم الحرب • وكان من الطبيعى أن تجابه الفتوحات السعودية بمواقف عدائية من جانب الدولة العثمانية وأشراف مكة الذين بدأوا يفقدون السيطرة تدريجيا على الجزيرة العربية • وفى عام ١٧٩٥ تمكن السعوديون من اخضاع منطقة الاحساء فى شرق الجزيرة العربية تحت الحكم السعودى • ثم بدأت الفتوحات السعودية فى ثلاثة اتجاهات : غربا نحو الحجاز والمدن المقدسة ، شمالا نحو العراق وجنوبا نحو مناطق فى شرق الجزيرة العربية •

وصلت طلائع القوات السعودية فى مستهل عام ١٨٠٠ الى منطقة الظفرة بقيادة سالم الحارق . وكانت تتكون من ٧٠٠ فارس وفى فبراير وصلت تلك القوات الى واحة البريمى • ويبدو أن خلافات بعض القبائل فى منطقة الظاهرة مع السيد سلطان قد سهلت عملية وصول القوات السعودية الى البريمى ، ومنها وجه القائد السعودى رسالة الى السيد سلطان يطلب منه قبول مبادىء الدعوة الوهابية والسلطة الروحية للأمير عبد العزيز •

وجهز السيد سلطان قوة ضخمة بالتآزر مع أخيه قيس بصحار وتقدمت القوات العمانية عبر وادى الجزى • فآثر القائد السعودى التوجه الى رأس الخيمة لعقد تحالف مع القواسم الذين كانوا فى صراع مع سيد سلطان • وتقدمت القوات المشتركة ، الا أن السيد سلطان كان قادرا على صـــدها فاضطر القواسم الى عقد صلح مع السيد سلطان • ثم دارت المعركة بين القوات العمانية والسعودية ، وانتهت بعقد صلح وافق السيد سلطان بموجبه على بقاء قائد القوات السعودية فى البريمى وذلك للتفرغ لتحقيق طموحاته فى السيطرة على البحرين • وقد عادت البريمى بعد ذلك لعمان •

وبانشغال السيد سلطان فى عملياته ضد البحرين ، قام القائد السعودى ببناء تحصيناته العسكرية فى البريمى ، فقام ببناء القلعـــة الجديدة : قصر الصبارة الى جنوب قصر الخندق •

ولمـــا كان هذا القائد السعودى شديد الطموح ، مغالياً فى الثقة بنفسه ، حاول محاولات شديدة فى السيطرة على بعض القبائل القريبة من حدوده توطئة لفرض الزكاة عليهم •

ولمدة ثلاث سنوات بقيت تلك الأوضاع قائمة ، ولكن عندما ذهب السيد سلطان فى يناير من عام ١٨٠٣ لأداء فريضة الحج وجد فى نفس الوقت أن القوات السعودية كانت على مشارف مكة • وبناء على طلب شريف مكة قام بارسال معونة عسكرية ومالية بعد عودته الى مسقط ولكن تلك المعونة وصلت متأخرة علاوة على أنها أثارت غضب الأمير عبد العزيز •

وقد ظهرت الخلافات بين الأمير عبد العزيز وبين السيد سلطان ، وكانت خلافات شديدة جعلت الحرب لا مفر منها بين الطرفين ، فقام القائد السعودى سالم بن الحارق بشن الحرب ، غير أنه فى نهاية الأمر تم الصلح بين الطرفين وأن يبقى الطرفان فى حالة سلام لثلاث سنوات •

ولكن تلك الاتفاقية لم يكتب لها الاستمرار ، فقام ســالم الحــارق

بحملة أخرى بعد أن وصلته الامدادات وتوجه بها نحو الباطنة وقام السيد سلطان بمقابلته بقواته فى شمال السوق •

وفى هذه اللحظة وصلت الى السيد سلطان والقائد السعودى أنبـاء اغتيال الأمير عبد العزيز فى الدرعية من قبل رجل شيعى انتقاما لمقتل أولاده أثناء الحملة السعودية على كربلاء وتم اغتيال الأمير السعودى أثناء تأديته فريضة الصلاة • وأدت هذه التطورات الى رفع القائد السعودى حصاره عن صحار والعودة بقواته الى البريمى ، كما أجبرت زعيم القواسم شـيخ سلطان بن صقر على عقد صلح مع سيد سلطان •

العلاقات الدولية فى عهد السيد سلطان :

واجه السيد سلطان أصعب فترات الصراع بين الدولتين العظميين فى منطقة الخليج ، كما واجه الضغوط السياسية من قبل الدولتين العظميين ، حيث حاولت كل منهما أن تكسبه الى جانبه • ومن المعلوم أن السيد سلطان كأسلافه حافظ على استمرار العلاقات الودية والتجارية مع الفريقين ، كما أنه لم يسمح لأى من الدولتين العظميين انشاء بعثات سياسية دائمة لهما ، وحال دون حدوث اشتباكات بين الفريقين فى المياه الاقليمية لعمان •

ومن نماذج حسن العلاقات الفرنسية العمانية تواجد طبيب فرنسى فى خدمة السيد سلطان وتواجد وسيط تجارى هندى لرعاية مصـالح الشركة الهندية الشرقية التابعة لبريطانيا ولرعاية أمور البريد التابعة للشركة •

وفى نهاية عام ١٧٩٦ بعث حاكم بومباى جوناثان دانكان بضابط الى مسقط لتقييم حجم النفوذ الفرنسى فى مسقط ولمعرفة موقف السيد سلطان من بريطانيا • وكان رد السيد سلطان وديا للغاية اذ أكد من خلاله بأنه حريص

على استمرار علاقات المودة القائمة • ولكن التطور الأساسى فى العلاقات جاء عقب نجاح نابليون بونابرت عام ١٧٩٨ فى الاستيلاء على مصر •

وكان اعتقاد المسؤولين البريطانيين فى الهند بأن مسقط ستكون المحطة القادمة لبونابرت فيما اذا فكر فى غزو الهند • فأوفد دنكان مهدى على خان ، المقيم البريطانى فى بوشهر لزيارة مسقط والتباحث مع السيد سلطان عن امكانية ابعاد الفرنسيين وحلفائهم الهولنديين عن مياه مسقط خلال فترة الحرب والسماح لبريطانيا بانشاء مقيمية فى مسقط •

كان العرض البريطانى يشكل مرحلة بالغة الأهمية فى مسار العلاقات الدولية وكان على السيد سلطان : أما رفض العرض البريطانى وقبول النتائج المترتبة وتعريض المصالح العمانية القوية مع الهند للاهتزاز وهو احتمال كان قائما فى ظل ظروف الحرب بين بريطانيا وفرنسا ، أو محاولة استغلال العرض البريطانى لعقد تحالف مع بريطانيا يفرض نوعا من الالتزامات والحقوق المتكافئة •

استمرت المباحثات بين السيد سلطان ومهدى على خان عدة أيام ، ونتج عنها توقيع السيد سلطان فى أكتوبر ١٨٩٨ « القولنامة » التى تضمنت فى المادة الثانية بعد الديباجة بأن عدو أحد الطرفين هو عدو الطرفين وصديق أحد الطرفين هو صديق كليهما • كما تضمنت مواد القولنامة تعهدا من جانب السيد سلطان بمنع الفرنسيين والهولنديين من فتح مقيمية فى مسقط ومساندة بريطانيا ، اذا حصلت معارك داخل المياه الاقليمية فى مسقط • الا أنه رفض التعهد بتقديم أية مساعدة عسكرية لبريطانيا اذا وقعت الحروب فى أعالى البحار •

وفى نفس الوقت اعتذر السيد سلطان عن السماح لبريطانيا بفتح مقيمية لها فى مسقط ، ولكنه سمح بفتح مقيمية لها فى بندر عباس ، الأمر الذى لو

تحقق كان سيكسب عمان اعترافا من احدى الدول العظمى بخضوع بندر عباس لعمان • وطلب السيد سلطان فى نفس الوقت تقوية الروابط التجارية وذلك بالسماح للسفن العمانية بالتزود بالمياه والأخشاب من ميناءى بومباى وكلكتا مجانا أسوة بالخدمات التى تقدم للسفن البريطانية فى مسقط ، كما طلب السماح بزيادة صادرات عمان من الملح الى كلكتا من ١٠٠٠ الى ٥ آلاف •

وفى يناير ١٧٩٩ بعث نابليون بونابرت بعد استيلائه على مصر برسالة الى السيد سلطان مصحوبة برسالة أخرى الى تيبو صاحب ، حاكم مانجالور وقد تضمنت رسالة بونابرت الى السيد سلطان ابلاغه بوصول الجيش الفرنسى الى مصر • وتأكيد رغبته فى استمرار علاقات الصداقة بين البلدين وترحيبه لتقديم حمايته للسفن العمانية التى تقدم الى السويس مع رجائه بارسال الرسالة المرفقة الى صاحبها تيبو سلطان • ولكن الذى حصل فان الرسالتين قبل وصولهما الى السيد سلطان وقعتا فى يدى مندوب شركة الهند الشرقية فى مخا وحولتا الى بومباى حيث تم تفسيرها بأن السيد سلطان يحاول التخلص من التزاماته حسب قولنامة ١٧٩٨ •

وبناء عليه قامت السلطات البريطانية بايفاد الكابتن مالكولم لمقابلة السيد سلطان فى محاولة للحصول على تأكيد بالتزامه بالقولنامة • وفى نفس الوقت طلب من السيد سلطان قبول تعيين مقيم سياسى بريطانى • وقد أكد السيد سلطان لمستر مالكولم أثناء مقابلتهما حرصه على دعم علاقات الصداقة بين البلدين ووقع يوم ١٨ يناير اتفاقية تؤكد نصوص قولنامة عام ١٧٩٨ ، كما وافق على احلال الجراح بوجل محل الطبيب الفرنسى وأن يكون الدكتور بوجل فى نفس الوقت أول مقيم لرعاية المصالح البريطانية فى مسقط•

والواقع فان هذه المعاهدة مع بريطانيا لم تلغ العلاقات التجارية القائمة مع فرنسا والتى كان السيد سلطان حريصا عليها • ففى مايو ١٨٠٠

أبلغ السيد سلطان وفدا من بومباى بأنه لا يعتبر أن القولنامة تفرض عليه تحالفا هجوميا ودفاعيا مترمتا ، وأنه فى الوقت الذى يمنع الفرنسيين من الاقامة فى بلده فانه يعتبر من حقه استمرار العلاقات التجارية وتزويد السفن الفرنسية التجارية بالمؤن •

وهكذا استمرت السفن التجارية الفرنسية تزور ميناء مسقط • وفى أغسطس ١٨٠٣ قدم وفد فرنسى برئاسة دو كافيناك لمقابلة السيد سلطان طالبا السماح للفرنسيين بتعيين مقيم سياسى فرنسى ، الا أن حاكم عمان اعتذر عن ذلك استنادا لقولنامة عام ١٧٩٨ مؤكدا فى نفس الوقت حرصه على استمرار العلاقات التجارية المعتادة ودراسة أى اقتراح من شأنه تقوية تلك العلاقات ، الا أن بريطانيا من جانبها تقاعست عن تقديم أية مساعدة عسكرية للسيد سلطان فى حروبه مع السعوديين •

وكان واضحا أن جهود السيد سلطان فى الفترة الأخيرة من حكمه كانت مركزة على استمرار بسط السلطة المركزية على أرجاء عمان فى مواجهة الفتوحات السعودية والنمو المتعاظم للقواسم • ومن الأفكار التى تطرق اليها هو عقد تحالف مع العثمانيين عن طريق باشا بغداد للقيام بعمليات مشتركة ضد السعوديين •

وفى سبتمبر ١٨٠٤ ، قام بالتحرك صوب البصرة للتأكد من مدى الاستعدادات الفعلية القائمة من جانب العثمانيين ، حيث تأكد له أن الحكومة العثمانية لم تكن جادة • وأثناء عودته بالخليج فى نوفمبر من نفس العام انتقل على ظهر قارب منفرد للنزول على جزيرة باسيدور حيث فوجىء بهجوم من جانب بعض سفن القراصنة الذين تمكنوا من اغتياله ثم نقل الى لنجة حيث تم دفنه •

من الواضح من خلال دراسة تاريخ حياة السيد سلطان أنه ترك شؤون

الامبراطورية أقوى مما كانت • فقد وسع من رقعة الامبراطورية العمانية وأصبح العديد من الموانى فى الجانب الفارسى من الخليج تابعة لعمان وعلى وجه الخصوص ميناء قشم وميناء هرمز الاستراتيجيين على مداخل الخليج اضافة على ميناء بندر عباس ولنجة وشهبار وجوادر •

وفى شرق افريقيا بقيت الأوضاع سائدة كما كانت فى عهد والده الامام أحمد •

ومن الناحية العسكرية فان أسطول السيد سلطان الخاص كان يتكون من السفينة الضخمة جنجافا ذات ٣٢ مدفعا وطاقة حمولتها ١٠٠٠ طن الى جانب ثلاث سفن أخرى رباعية الشراع ذات عشرين مدفعا كانت تجوب البحار الى الهند ، افريقيا ، العراق وحتى حدود الصين ، أما القوة العسكرية البحرية فكانت تتكون من ١٦ سفينة حمولة كل منها ٤٠٠ — ٧٠٠ طن و ٥٠ مركبا شراعيا ضخما و ٥٠ مركبا صغيرا •

وكانت التجارة مزدهرة فى عهد السيد سلطان حتى أصبحت مسقط أعظم ميناء بمنطقة الخليج ، ومعظم التجارة كانت بأيدى العرب والجزء الآخر بأيدى البانيان من الهند • وقدرت تجارة الخليج فى عهد السيد سلطان بحوالى مليون و ٦٠٠ ألف جنيه استرلينى كان نصيب مسقط منها خمسة أثمان تلك التجارة • وكانت الجمارك على البضائع فى حدود ٦ر٥ ٪ •

والى جانب ذلك فان موارد خزينة الدولة كانت تتكون من عشور على المنتوجات الزراعية التى قدرت بمائة ألف روبية سنويا •

والواقع فان ايرادات السيد سلطان من تجارته الخاصة كانت أيضا تشكل موردا رئيسيا لخزانة الدولة • الى جانب الخراج السنوى من سواحل

شرق افريقيا والموانىء الأخرى على الجـزء الفارسى من الخليج والتابعة لعمان •

أوضاع عمان فى عهد بدر بن سيف (١٨٠٥ — ١٨٠٧) :

بموت السيد سلطان بن الامام أحمد فى نوفمبر ١٨٠٤ ، ظهرت مرة ثانية بوادر صراعات داخلية فى عمان • فقد كان أبناء السيد سلطان : سالم وسعيد صغيرى السن • وبالتالى وجد عمهما قيس حاكم صحار أن الفرصة مناسـبة لقيامه بحركة بهدف الاستيلاء على حكم عمان • وكان السيد سلطان عنـد مغادرته عمان فى رحلته الأخيرة التى أودت بحياته قد عين محمـد بن ناصر ابن محمد الجابرى وصيا على ابنيه • فاستغل قيس هذه الأوضاع للقيام بتمرده • وكان يساعد قيس فى حركته أخوه محمد ، وتمكنت قوات قيس من فرض الحصار حول مسقط •

وبرغم أن محمد بن ناصر عرض على قيس اقطاعه مدينـة الخابورة وتخصيص ٢٠٠٠ ريال ماريا تيريزى سنويا له من خزانة الدولة الا أن قيس رفض ذلك العرض • ونتيجة لهذا الاصرار فقد اجتمعت الأسرة وشاركت فى الاجتماع موزة بنت الامام أحمد ، التى كانت تلعب دورا سياسيا بارزا فى هذه الفترة وأقرت طلب المساعدة من بدر بن سيف بن الامام أحمد الذى كان متواجدا فى الدرعية فى ذلك الوقت •

وكان بدر ذا شخصية طموحة مثل والده سيف الذى قضى نحبه فى شرق افريقيا • وفى عهد عمه السيد سلطان عام ١٨٠٣ قام بأول محاولة تمرد له عام ١٨٠٣ مستغلا غياب عمه لأداء فريضة الحج • وعندما فشل فى محاولته تمكن من الهرب واتجه الى نجد حيث اجتمع بالأمـير السعودى وتمكن من توطيد علاقاته معه • وعندما وصلت الدعوة الى بدر من الوصى محمد بن ناصر فانه سرعان ما توجه الى مسقط •

إن هذه الفترة من تاريخ الجزيرة العربية تميزت بالقلاقل والخصومات بين الاخوة العرب ، وقد كان للاستعمار ووسائله دخل كبير فى قيام تلك الحروب التى كانت عمان طرفاً فيها ، وهو الطرف الذى خرج من تلك الحروب ظافراً بسيادته ووحدته ، وبالرغم من كل المصاعب التى واجهته نتيجة تلك الحروب من خسارة فى المال والرجال ، فقد استعان بالصبر حتى بلغ مناه من الاستقرار •

وعندما استتبت الأمور لبدر بن سيف ، فانه لم يتوان عن توطيد نفوذ عمان فى منطقة الخليج • فقام فى يونيو ١٨٠٥ بقيادة حملة بحرية ضد بنى معين لاسترداد سيطرة عمان على جزيرتى قشم وهرمز وميناء بندر عباس فى الخليج ، وقد تمكن بنو معين فى فترة الاضطربات بعد موت السيد سلطان من اعادة فرض سيطرتهم على تلك المناطق • ويوم السابع من يونيو قام الأسطول بقصف الحامية الموجودة فى بندر عباس وأجبروها على الاستسلام• ثم توجه الأسطول العمانى الى جزيرة قشم حيث فرض حصارا حولها وأجبر بنى معين على الاستسلام مرة أخرى •

العلاقات الدولية فى عهد بدر بن سيف :

بعد موت السيد سلطان بن الامام أحمد ، أوفدت السلطات البريطانية المقيم البريطانى السابق الكابتن دافيد سيتون الى مسقط بهدف اعادة فتح المقيمية البريطانية • وكانت تعليمات جورج بارلو الحاكم العام لسيتون تتضمن مساعدة أحد ابنى سلطان لتولى الحكم مع عدم استعمال أية قوة • ولكن عندما وصل سيتون فى مايو ١٨٠٥ الى مسقط وجد السيد بدر يستعد لحملته ضد بنى معين ــ حلفاء القواسم وقد قرر سيتون مواكبة حملة السيد بدر بن سيف فى بندر عباس وقشم على ظهر سفينته على أنه لم يقدم أية مساعدة عسكرية •

ومن الناحية الأخرى فان السيد بدر بن سيف كان حريصا أيضا على استمرار العلاقات الودية مع فرنسا • وقد جاء فى رسالته الى ديكان حاكم جزيرة فرنسا فى المحيط الهندى ما يؤكد حرصه على استمرار العلاقات الودية بين الدولتين وترحيبه بقدوم السفن الفرنسية الى مسقط للتزود بالمياه والمؤن •

الدولة العمانية فى عهد السيد سعيد بن سلطان (١٨٠٦ ــ ١٨٥٦) :

تعتبر فترة حكم السيد سعيد بن سلطان أعظم فترة فى تاريخ الامبراطورية من حيث نموها وازدهارها واتساعها • ففى الوقت الذى كان السيد سعيد شخصية طموحة محاربة لا تلين ولا تتزعزع قدراته من التحديات التى كانت تواجهه ، فان صفاته الشخصية أهلته بأن يكون أعظم شخصية حكمت عمان فى القرن التاسع عشر ، وتلك الصفات أيضا مكنته من كسب ولاء العمانيين والرضا التام بحكمه • فقد كان متواضعا لا يفرق بين العام والخاص وكان يجنح الى الشورى فى أحكامه مستنيرا برأى الرؤساء والمشايخ •

ومن الناحية العسكرية كان جريئا يقود معظم الحملات بنفسه وكان دبيلوماسيا محنكا استطاع أن يكسب الاعتراف من جانب جميع الدول العظمى ، ووقع معاهدات الصداقة مع الولايات المتحدة الأمريكية ، بريطانيا ، فرنسا ، ألمانيا • ومن الناحية المالية كان تاجرا محنكا استطاع أن ينمى الموارد المالية من التجارة وهو الذى أدخل عدة زراعات جديدة فى أجزاء الامبراطورية بشرق افريقيا •••

وفى نهاية عهده كانت تشكل ايرادات الدولة من شرق افريقيا ثلثى ايرادات الخزينة • والواقع فان الأحداث فى عهد السيد سعيد التى امتدت نصف قرن كانت جسيمة الى درجة أن كل عنصر من تلك العناصر تحتاج الى بحث •

توطيد الحكم داخليا فى عهد السيد سعيد :

بذل السيد سعيد جهودا مضنية فى سبيل توطيد دعائم الحكم فى داخل عمان بعد نجاحه فى القضاء على بدر بن سيف فى بركا عام ١٨٠٧ وبرغم أنه كان صغير السن حوالى ١٦ عاما ، الا انه تمكن خلال فترة قصيرة من تثبيت دعائم الحكم • وباستقرار الأحداث الداخلية فى عهده نجد أن عمان تميزت باستثناء الحروب مع السعوديين باستقرار تام • ولم يعكر صفو هذا الاستقرار سوى احداث الخلافات مع حاكم صحار خصوصا فى الفترات التى كان حاكم عمان موجودا خارج عمان •

ما إن تمكن السيد سعيد من تنفيذ اغتيال بدر بن سيف فى بركا ، حتى أسرع عائدا الى مسقط • ويبدو أن ثمة كراهية عامة كانت سائدة بين الناس ضد بدر بن سيف ، ولم تحصل أية محاولة تمرد ضد السيد سعيد بل إن قاطبة القبائل أيدته • وبعد وصوله الى مسقط تم الاتفاق بين الأخوين سالم وسعيد على ممارسة الحكم بصفة مشتركة • وكان سالم يكبره بعامين تقريبا الا أن شخصية سعيد كانت أقوى، ومع الوقت أصبح هو الحاكم الفعلى لعمان • كما أن عمه قيس حاكم صحار قد أيد مساعيه ••• ولكن جهود السيد سعيد فى تحقيق الوحدة الوطنية الكاملة خصوصا فى السنوات العشر الأولى من حكمه تأثرت بالصراعات التى كانت قائمة مع القوات السعودية • وتلك الصراعات لا يمكن فصلها تاريخيا عن الصراعات الداخلية •

علاقات السيد سعيد مع السعوديين :

بمجرد أن تمكن السيد سعيد من اغتيال بدر بن سيف ، فان علاقاته تدهورت مع السعوديين ، نظرا للعلاقات الوطيدة بين بدر بن سيف والسلطات السعودية • وترتب على نجاحه انسحاب الحامية السعودية التى كانت متواجدة فى بركا الى البريمى ، مقر القوات السعودية آنذاك •

وحاول السيد سعيد تأكيد روابط الصداقة مع السعوديين فبعث عام ١٨٠٨ برسالة الى الأمير سعود بن عبد العزيز يؤكد حرصه على استمرار العلاقات الطيبة واستعداده للالتزام بالاتفاقية المعقودة مع عمان ٠

ولكن أحداث نهاية عام ١٨٠٩ أدت الى تدهور العلاقات من جديد وقيام الحروب بين الطرفين ٠ ففى هذا العام تمكنت بريطانيا من توجيه ضربة قوية الى القواسم فى رأس الخيمة ٠ فنتيجة لعمليات الاعتداء من جانب القواسم على السفن البريطانية قررت بريطانيا توجيه تلك الضربة ضد القواسم وتمكن الأسطول البريطانى فى ١١ نوفمبر ١٨٠٩ من السيطرة على رأس الخيمة وحرقها ، كما تم تدمير جميع السفن التى كانت راسية فى الميناء ٠

وبرغم أن تلك العمليات البريطانية لم تكن حاسمة ، لأن معظم قطع الأسطول التابع للقواسم كانت فى أعالى البحار ، الا أن السيد سعيد وجد أن الوقت بات مناسبا للقيام بعمليات لتحرير الأراضى العمانية من سيطرة القواسم وبالذات مدينة شناص ٠

وعندما التقى الكولونيل سميث قائد الحملة البريطانية بحاكم عمان وأخيه السيد سالم بعد انتهاء العمليات ضد رأس الخيمة تشاورا فيما يجب عمله ٠ وعرض حاكم عمان على القائد البريطانى اشتراك قطع من الأسطول البريطانى فى حملة لاسترداد شناص ٠

وقد أدت العمليات المشتركة الى تمكن القوات العمانية فى السيطرة على شناص ، وكانت هذه الحادثة تشكل أول تعاون بريطانى عمانى عسكرى بعد صدور قولنامة عام ١٧٩٨ ٠ ولكن عمليات السيطرة على شناص لم تؤد الى نتائج ايجابية اذ ما إن انسحب الأسطول البريطانى عائدا الى مقر وحداته

فى الهند . حتى أسرع القائد السعودى مطلق المطيرى . بعد أن تمكن من جمع قوات كبيرة الى اعلان الحرب على السيد سعيد •

ودارت الحرب بين مدٍّ وجزر ، وقد حاول السيد سعيد أن يحقق انتصاراً لقواته فبعث برسالة الى حكومة بومباى عام ١٨١٠ لمساعدته فى مواجهة القوات السعودية الا أن السلطات البريطانية اعتذرت عن الاستجابة لطلبه مفضلة عدم التدخل فى الصراعات الداخلية فى الجزيرة العربية •

ويلاحظ فى هذا الصدد أن سياسة بريطانيا فى هذه الفترة فى منطقة الخليج كانت تنحصر فى مواجهة أعمال الاعتداءات التى كانت تقوم بها سفن القواسم والذى كان أسطولهم قد وصل الى درجة عالية من القوة ، حيث قدرت عدد سفنهم فى هذه الفترة بما مجموعه ٨٧٦ قطعة بحرية منها ٦٣ قطعة كبيرة وقادرة على نقل ١٩ ألف مقاتل • وفى سبيل مجابهة القواسم ، كانت السلطات البريطانية لا تمانع من تقديم معونة عسكرية أو القيام بحملات مشتركة مع القوات العمانية • أما فيما عدا ذلك وبالذات فيما يتعلق بالسعوديين فان سياسة بريطانيا كانت تنحصر فى عدم التدخل فى تلك الصراعات وخصوصا الحروب البرية •

ونتيجة اعتذار السلطات البريطانية عن تقديم المساعدة لحاكم عمان فانه أوفد أخاه سالما فى مهمة الى شيراز فى محاولة للحصول على مساعدة فارسية ، ونجحت تلك المساعى ووصلت قوات قوامها ١٥٠٠ مقاتل بقيادة سعدى خان • وتقدمت قوات السيد سعيد بقيادة أخيه سالم يسانده عمه قيس حاكم صحار وقائد القوات الفارسية صوب نخل • واستطاعت تلك القوات فى البداية أن تحقق انتصارا على القوات السعودية المتحالفة مع

بعض القبائل العمانية واجبارها على التقهقر الى ازكى • ولكن ما أن تمكن السعودى مطلق المطيرى من جمع القوات وتنظيمها حتى بادر الى هجـوم عكسى ألحق خلاله بعض الخسائر فى قوات السيد سعيد والقوات الفارسية وترتب على ذلك انسحاب فلول القوات الفارسية نهائيا من عمان •

وفى عام ١٨١٣ قام المطلق المطيرى بعمليات جديدة فى عمان ، ولكن تلك العمليات كانت سببا فى موته • ففى نوفمبر ١٨١٣ تقدم بقوات كبـيرة من الظاهرة نحو الشرقية • وعند وصوله مناطق الحجرين تمكنت جماعة فدائية من اغتياله واضطرت بقية قواته للانسحاب الى البريمى •

وتعتبر هذه الحادثة وحادثة وفاة الأمير سعود بن عبد العزيز عام ١٨١٤ بداية تحول فى مجريات الأحداث ••• مكنت السيد سعيد من تحقيق سيطرته على أرجاء عمان ثم التفرغ لمجابهة الأحداث فى منطقة الخليج وتوسيع رقعة الامبراطورية العمانية وتوطيد نفوذها •

وقد تصادف فى نفس العام أن توفى ابن عمه فزان بن قيس أثناء تأديته فريضة الحج • وكان فزان قد خلف والده فى حكم صحار • وبوفاة فزان بن قيس خضعت صحار للمرة الأولى للسلطة المركزية للسيد سعيد •

وتجدر الاشارة هنا الى أن انتصارات محمد على والى مصر ضد الأمراء السعوديين كان لها دور أيضا فى تخفيف حدة أحداث الصراعات العمانية السعودية فى تلك الفترة • فقد تمكنت قوات محمد على من تحقيق انتصارات متتاليـة على قوات الأمراء السـعوديين ، وتمكنت فى أبريل ١٨١٨ م من الاستيلاء على الدرعية العاصمة وأنهت بذلك ما يعرف بالدولة السـعودية الأولى • ولم تتجدد الصراعات بين عمان والسعوديين الا بعـد أن تمـكن

الأمراء السعوديون مرة ثانية من انشـــاء دولتهم التى تعـــرف « بالـــدولة السعودية الثانية » •

وكما أسلفنا فقد مكنت هذه الظروف السيد سعيد من تحقيق مزيد من الوحدة الوطنية • وفى عام ١٨٢٠ ، قرر السيد سعيد توجيه حملة ضد بنى بوعلى فى الشرقية • وكانت قبائل بنى بوعلى على خصام مع السيد ســـعيد لسنوات عديدة ، وكانت متحالفة مع القوات السعودية • وتصادف فى نفس الوقت ان كانت السلطات البريطانية راغبة فى توجيه ضربة انتقامية لقبائل بنى بوعلى بسبب قيامهم باغتيال مترجم من سفينة مركورى البريطانية أثناء تواجده فى الأشخرة فى فترة سابقة • فاشـــتركت قوات بريطانية بقيـــادة الكابتن تومبسون مع قوات السيد سعيد فى الحملة التى وصـــلت فى بداية نوفمبر ١٨٢٠ الى بلاد بنى بوعلى • وكانت قوة السيد سعيد تتألف من ١٠٠٠ مقاتل • وعندما رفضـــت قبائل بنى بوعلى الاســـتسلام بدأت العمليـــات العسكرية ولكنها أدت الى خسائر فظيعة فى جانب القوات البريطانية الذين خسروا ٦ من ضباطهم و ٢٧٠ قتيلا آخرين الى جانب فقدانهم لكل القطـــع الحربية التى تم انزالها •

وخلقت تلك الخسائر الفادحة حافزا أقوى لدى السلطات البريطانية فى توجيه حملة أخرى ضد بنى بوعلى • فقامت بايفاد حملة بحرية أخـــرى بقيادة الكولونيل ليونيل سميث فى يناير عام ١٨٢١ م • وتمكنت القـــوات البريطانية من الحاق هزيمة كبيرة فى قوات قبائل بنى بوعلى والتى حضرها السيد سعيد أيضا •

وكانت نتيجة تلك الهزائم التى منيت بها قبائل بنى بوعلى ان امتدت سيطرة السيد سعيد على تلك الأجزاء من عمان •

وفى فبراير من نفس العام توفى السيد ســـالم بن ســـلطان مما مكن

السيد سعيد من الانفراد بالسلطة • ويعتقد بأن الامام سعيد بن الامام أحمد أيضا توفى فى نفس العام فى العاصمة القديمة : الرستاق والذى كان يمارس سلطاته كزعيم روحى هناك •

وقد حفزت الأوضاع المستقرة فى عمان بعد اخضاع قبائل بنى بوعلى عام ١٨٢١ م ، الى تفرغ حاكم عمان لتوطيد شؤون الامبراطورية فى الخليج وشرق افريقيا • وخلال العقد الثالث من القرن التاسع عشر بذل السيد سعيد جهودا لتوطيد نفوذ عمان فى منطقة الخليج • وبعد العقد الرابع حتى وفاته كانت جهود السيد سعيد منصبة على توسيع رقعة الامبراطورية العمانية وتحقيق ازدهارها فى شرق افريقيا وكذلك الى توطيد العلاقات الدولية •

ولكن فى العقد الرابع توترت من جديد العلاقات مع السعوديين بعد أن تمكن آل سعود من استرداد حكمهم • وفى نهاية عام ١٨٣٢ بعد عودة السيد سعيد من زنجبار من رحلته الثانية برزت المشكلة من جدير مع السعوديين • وقد آثر السيد سعيد نظرا لاهتمامه فى تلك الفترة كما أسلفنا . للتفرغ لشؤون الامبراطورية فى شرق افريقيا أن يوطد العلاقات مع السعوديين ، بأن عقد صلحا مع السعوديين . كما أنه اتفق مع السعوديين على التعاون بين البلدين للقضاء على أعدائهما ••• وهذا الاتفاق يبدو أنه كان رمزا سياسيا للتفاهم الودى . اذ لم يترتب عنه تحقيق أى تعاون فعلى فيما بعد • كما أن السلطات البريطانية عبرت عن مخاوفها من مثل هذا الاتفاق •

وهكذا ساد العلاقات بين الدولتين جو من التفاهم • وفى عام ١٨٤٥ . قام القائد السعودى سعد بن مطلق بقيادة هجوم برى من البريمى عبر

الباطنة صوب مسقط • واذ كان السيد سعيد فى تلك الفترة موجودا فى زنجبار فان ابنه سيد ثوينى عرض حل المشكلة وديا بعد رجوعه الى والده • وفى نفس الوقت فان القبائل العمانية كانت تتجمع من أجـل توحيد جهودها لمواجهة التطلعات السعودية • ونتج عنها موافقة القائد السعودى حل الخلافات وديا •

وفى عام ١٨٥٣ ، قدم الأمير عبد الله محل الأمير فيصـل الى عمان ، وبعد أن تمكن من جمع قوات كبيرة وجه الى السيد ثوينى طلبا بتسليم صحار ودفع أتاوة ضخمة • وتحرك السيد ثوينى نحو صحار حيث تجمعت القبائل العمانية استعدادا للمعارك ، ومرة أخرى وافق الطرفان على انهاء النزاع والاتفاق على الصلح •

جهود السيد سعيد فى توطيد شؤون الامبراطورية فى منطقة الخليج :

ما ان استتب الاستقرار الداخلى حتى بدأ السيد سعيد يوجه جهوده صوب منطقة الخليج • ومن المعلوم أن السيد سعيد ورث عن والده سلطان حكم العديد من الموانىء فى منطقة الخليج أهمها جزيرتا قشم وهرمز على مداخل الخليج علاوة على ميناء بندر عباس وتوابعها التى كان السيد سلطان قد تمكن من استئجارها من الحكومة الفارسية مقابل ايجار سنوى •

وفى يوليو من عام ١٨٢٦ ، أوفد السيد سعيد أسطولا قام بمحـاصرة ميناء بوشهر • وبناء على رغبـة المقيم السياسى البريطانى لم يقم بقصف المدينة الا أنه تمكن من أسر حاكم بوشهر وابقاءه فى عمان مدة عام ، وافق بعدها على الافراج عنه مقابل فدية بلغت ٦٠٫٠٠٠ ريال وزواجه من أميرة فارسية كانت حفيدة فتح على شاه •

وهكذا بقيت الموانىء الفارسية خاضعة لحكم عمان حتى عام ١٨٥٤ ، عندما قامت حكومة فارس من شيراز لاعادة سلطة فارس على ميناء بندر عباس وتوابعها • وتمكنت القوات الفارسية من اجلاء الوالى العمانى سيف ابن نبهان عنها • فاضطر السيد سعيد الى العودة من زنجبار لمواجهة تلك التطورات • وبعد عودته قام بارسال قوة بحرية بقيادة نجله السيد ثوينى الذى تمكن من اعادة احتلال بندر عباس ، ولكن بعد ورود مزيد من التعزيزات من شيراز تمكنت القوات الفارسية من اجلاء العمانيين • فقام السيد سعيد بفرض حصار حول بندر عباس لعزلها عن العالم الخارجى • واضطرت السلطات الفارسية عام ١٨٥٦ للدخول فى مفارضات ترتب عنها عودة السلطة العمانية على بندر عباس وتوابعها ، على أن يرفع الايجار السنوى الى ١٦٫٠٠٠ تومانا ، وعدم السماح للسلطات العمانية بالتصرف بالميناء بمنحه لطرف ثالث وأن ينال تعيين الوالى الجديد موافقة السلطات الفارسية •

وكانت البحرين هدفا دائما وثابتا فى مخطط السيد سعيد وذلك على نهج والده • ومن المعلوم تاريخيا أن اليعاربة استطاعوا اخضاع البحرين للحكم العمانى لفترة زمنية ، كما نجح السيد سلطان والد السيد سعيد من احتلال البحرين لفترات وجيزة ، فى مطلع القرن التاسع عشر •

و فىعام ١٨١٠ استطاعت السلطات السعودية توحيد البحرين والقطيف وقطر فى ادارة واحدة عين عليها عبد الله بن عفيصان وكانت سلطة آل خليفة اسمية فى تلك الفترة • فاضطر آل خليفة للهجرة الى الزبارة ومنها طلبوا عون القوات الفارسية وتمكنوا بمساعدتها من اعادة سيطرتهم على البحرين خصوصا وأن القوات السعودية اضطرت فى تلك الفترة الى الانسحاب من معظم المناطق لمواجهة تقدم القوات المصرية فى نجد •

وقد حاول السيد سعيد أن يتحالف مع السعوديين للاستيلاء على

البحرين على أن يدفع للسعوديين فى حالة نجاحه ايجارا سنويا عنها ، الا أن جهوده تلك فشلت • ثم تقدم السيد سعيد بعرض على الحكومة الفارسية للتعاون فى اخضاع البحرين على أن يدفع للفرس ايجارا سنويا شبيها بالايجار الذى كان يدفعه عن بندر عباس وتوابعها الا أن هذا العرض لم يجد تجاوبا من الحكومة الفارسية • ولكن فى عام ١٨١٦ م واتت الفرصة السيد سعيد للقيام بمحاولة لتحقيق أهدافه فى البحرين ، اذ أنه بالتعاون مع رحمة بن جابر الذى اشتهر فى تلك الفترة بأنه كان قرصانا جريئا قدم مساعدات قبل ذلك للسعوديين ، قام السيد سعيد بالقيام بهجومه على البحرين ، ولكن المعركة برغم أنها لم تحقق انتصارا ساحقا للسيد سعيد الا أنها أجبرت آل خليفة على الموافقة بدفع أتاوة سنوية لحكومة مسقط •

وبتوقف حكومة البحرين عن سداد تلك الأتاوة ، نشط السيد سعيد مرة أخرى فى جهوده للسيطرة على البحرين ، وعرض على السلطات البريطانية عام ١٨١٩ أبان حدوث الحملات العمانية المشتركة ضد القواسم ، التعاون لفرض سيطرة عمان على البحرين بهدف تحقيق الاستقرار بمنطقة الخليج ، الا أن الحكومة البريطانية لم توافق على تلك الخطة •

ثم جاءت التطورات السياسية عندما انضمت البحرين رسميا عام ١٨٢٤ لاتفاقية السلم البحرية التى فرضتها بريطانيا على القواسم وبعض الشيوخ عام ١٨٢٠ •

وبانضمام البحرين الى تلك الاتفاقية اكتسبت شبه اعتراف من دولة عظمى بكيانها المستقل • وبرغم تلك الاتفاقية قام السيد سعيد فى نوفمبر ١٨٢٨ بحملة بحرية أخرى ضد البحرين ، الا أن تلك الحملة لم تحقق أهدافها •

وفى عام ١٨٣٩ ، نتيجة تقدم القوات المصرية فى الجـزيرة العربيـة عرض السيد سعيد على محمد على قيامه بحملة على البحرين واخضـاعها للسلطة العمانية مقابل سداده مبلغا سنويا ثابتا ، الا أن هذا العرض لم يجد طريقه الى التنفيذ •

وفى عام ١٨٤٣ ، جدد السيد سعيد عرضه على السلطات البريطانية للقيام بحملة ضد البحرين مستغلا فترة القـلاقل التى كانت سـائدة فى البحرين • وقام السيد ثوينى فعـلا بتجهيز الحملة ضـد البحرين الا أن السلطات البريطانية نصحته بالتخلى عن المشروع خوفا من ردود الفعل من جانب السعوديين والفرس •

واذ كانت بريطانيا فى تلك الفترة تحاول الحد من نشاط القواسـم ، وفيما يختص بعلاقات السيد سعيد مع محمد على ، باشا مصر ، فان تلك العلاقات كانت ودية فى معظم فتراتها • وفى عام ١٨١١ م عندما بدأت القوات المصرية هجومها فى السعودية عرض السيد سعيد على محمد على عقد تحالف بينهما ، ولكن محمد على اكتفى فى تلك الفترة باستئجار عشرين سفينة من حاكم عمان لدعم قواته البحرية •

واذا كانت بريطانيا فى تلك الفترة تحاول الحد من نشاط القواسم ، فانها دعمت جهود التقارب بين السيد سعيد والقـوات المصرية ، اذ بعثت السلطات البريطانية للفتاننت سادلير عام ١٨١٧ م حاملا رسائل الى كل من ابراهيم باشا والسيد سعيد •

وعندما تمكنت القوات المصرية من الاستيلاء على العاصمة الدرعية عام ١٨١٨ ، بادر السيد سعيد بارسال تهنئة الى محمد على • كما وفد حاجا على مكة عام ١٨٢٤ ، حيث أرسل محمد على وفدا لاسـتقباله والترحيب به •

وحتى عام ١٨٣٩ كانت الدلائل تشـــير الى حرص الســلطات المصرية فى الاستمرار فى العلاقات الودية • ولكن فى هذا العام استلم السيد ســعيد رسالة من خالد بن سعود ، الذى كان المصريون قد عينوه حاكما على اقليم نجد بعد تمكنهم من القضاء على حكم الأمير فيصل ، والتى كان خالد يطالب بموجبها من حاكم عمان دفع الأتاوة السنوية التى توقف السيد سعيد عن سدادها بعد تمكن المصريين من القضاء على حكم آل سعود • فان الســيد سعيد بادر الى ارسال رسالة احتجاج الى محمد على ، فقام محمــد على بالكتابة الى خالد بن مسعود يطلب منه تجنب معاملة السيد سعيد بما يؤدى الى الاضطراب فى العلاقات وتطييب خاطره ، كما بعث برسالة اطمئنان الى السيد سعيد •

ولكن تلك الصداقات شهدت فترة توتر عام ١٨٣٩ نتيجة تفكير السلطات المصرية بمد سيطرتها على البوريمى والتى بدأت بايفاد سعد بن مطلق لاعادة احتلال البريمى • وترتب عنها قيام السيد سعيد بتحريض القبائل فى تلك المنطقة ضد سعد بن مطلق •

والواقع فان مجىء سعد بن مطلق الى البريمى عام ١٨٣٩ م ، جوبه أيضا بمعارضــة قوية من جانب الســلطات البريطانية اذ بادر هنل المقيم السياسى البريطانى فى الخليج الى ارسال رسالة احتجاج الى خورشــيد باشا يطلب فيها الكف عن التدخل فى شؤون البحرين وعمان ، مؤكــدا فى نفس الوقت أن ارسال القواسم الى البريمى دليل على عدم رغبة الاستمرار فى العلاقات الودية بين الدولتين •

كما بعث المقيم السياسى البريطانى برسالة الى سلطان بن صقر زعيم القواسم يطلب منه عدم التحالف مع قوات السعد بن مطلق بل العمــل على طردها • ولكن تطورات الحرب فى سوريا بين القوات المصرية والقــوات

البريطانية التركية المشتركة أدت الى اقرار معـاهدة التسوية لعام ١٨٤٠ والتى بموجبها تم انسحاب القوات المصرية من الجزيرة العربية نهائيا •

وتشير الوثائق بأن العلاقات المصرية العمانية عادت ودية من جديد • وكانت الهدايا يتم تبادلها بين السيد سعيد ومحمـد على وخلفاءه عبـاس وسـعيد •

وتعتبر جهود السيد سعيد ضد العثمانيين فى البصرة آخر مجهوداته فى دعم نفوذ عمان فى الخليج • ففى نوفمبر ١٨٢٦ قاد أسطولا نحو البصرة مستغلا قيام الاضطرابات من قبل شيخ المنتفق • وكانت مطالب السـيد سعيد تتلخص فى اجبار متسلم البصرة على دفع المبالغ التى تعهدت سلطات البصرة بسدادها الى جده الامام أحمد أثناء مساهمته فى رفع الحصـار الفارسى عن البصرة • وقدر السيد سعيد جملة تلك المبالغ بـ ١٠٤ آلاف ريال ماريا تيريزى • ونجح السيد سعيد فى حملته بعد أن هزم أسـطول البصرة واستطاع أن يأخذ متسلم البصرة أسـيرا معه الى مسقط ، وأجبر متسلم البصرة على تقديم تنازلات مرضية •

شؤون الامبراطورية فى شرق افريقيا :

يعتبر السيد سعيد أعظم حاكم من أسرة البوسـعيدى أدى أجـل الخدمات لشؤون شرق افريقيا • وهو يعتبر أول وآخر حاكم عمانى اتخذ من شرق أفريقيا فى زنجبار عاصمة ثانية له بعد مسقط •

وبعد العقد الرابع من القرن التاسع عشر ، فان فترات اقامته فى زنجبار امتدت للعديد من السنوات الا أن ذلك لم يؤد الى اهماله شؤون عمان ، اذ أنه ما ان كان يتلقى أنباء القلاقل داخل عمان حتى كان يسارع عائدا الى مسقط • وفى عهده نمت وازدهرت شرق افريقيا ووصل نفوذ الامبراطورية هناك أقصى اتساع له •

وكان أكثر ما يقلق السيد سعيد بالنسبة لشرق افريقيا هو تمكن المزروعيين من الانفصال بممباسا ، وتمكنهم من فرض سيطرتهم على عدة مناطق أخرى مثل لامو وبمبا وباتا • ورغم أن السيد سعيد قاد أول حملة له ضد المزروعيين عام ١٨٢٩ ، الا أن سنوات حكمه الأولى وانشغاله فى شؤون عمان والخليج لم تحل كلية دون قيامه بمجهودات محددة •

ففى عام ١٨١٢ أرسل أسطولا بقيادة خلف بن ناصر ليكون واليا على لامو ولبناء قلعته هناك ، وفى عام ١٨١٤ تولى حكم ممباسا عبد الله بن أحمد المزروعى الذى يعد أشجع حاكم من أسرة المزروعى ، والذى بدلا من قيامه بارسال الجزية والخراج أرسل بعضا من البارود الى السيد سعيد معبرا عن تحديه له ومدركا فى نفس الوقت الأخطار المحرقة به سافر الى بومباى فى محاولة لعقد تحالف مع بريطانيا بدون جدوى •

واستغل السيد سعيد بعد ذلك الاضطرابات الناشئة فى باتا وأرسل قوة بحرية بقيادة عبد الله بن على حيث استطاعت تلك القوة تعيين بوانا شيخ كوالى من قبل السيد سعيد ، الا أن عبد الله بن أحمد تمكن مرة أخرى من اعادة سيطرته على تلك المنطقة • ثم قام السيد سعيد فى عام ١٨٢٢ بارسال حملة أخرى بقيادة حامد بن أحمد الذى تمكن من الحصول على اعتراف السيادة العمانية وجمع الأموال السنوية من براغا وباتا وسيوى ، وحفز هذا العمل والى زنجبار من قبل السيد سعيد للقيام بعمليات قصف ضد بمبا واعادة اخضاعها للحكم العمانى •

وفى عام ١٨٢٣ مات عبد الله بن أحمد المزروعى وخلفه فى الحكم سليمان بن على • وقد اتخذ السيد سعيد ازاءه اجراءات فرض الحصار الاقتصادى بمنع أهالى عمان من التجارة مع ممباسا • هذا الاجراء الى جانب فقدان السيطرة على بمبا التى كانت ترد منها معظم المنتجات الغذائية الى ممباسا ، أثرت الى حد كبير على الأوضاع الاقتصادية لممباسا • وكتب

سليمان بن على الى حكومة بومباى يطلب منها منحه حمايتها الا أن السلطات البريطانية رفضت عرضه لأن ذلك يتناقض مع الارتباطات والمواثيق القائمة بين بريطانيا وعمان •

أزمة أويين :

فى الثالث من ديسمبر ١٨٢٣ قدمت الى ميناء ممباسا السفن البريطانية باراكوتا بقيادة الكابتن فيدال والبارجة البريطانية ليفين بقيـــادة الكابتن أويين • وقد حاول حاكم ممباسا سليمان بن على استغلال تواجد تلك السفن فبعث ابن أخيه على رأس وفد الى الكابتن فيدال طالبا منه السماح له برفع العلم البريطانى على ممباسا ووضع البلدة تحت الحماية البريطانية ، وكان يعتقد أنه بهذا الاجراء يستطيع التخلص نهائيا من الحكم العمانى • ولكن الكابتن فيدال اعتذر عن منحه الحماية البريطانية الا أنه وعده بارسال طلباته الى السلطات البريطانية •

ثم غادر فيدال بسفينته ممباسا يوم ٧ ديسمبر • وبرغم اعتذار فيدال قام سليمان بن على برفع العلم البريطانى على ممباسا ، وذلك بهدف التمويه على الأسطول العمانى • وعندما وصل الأسطول العمانى بعد عدة أشهر لم يكترث للعلم البريطانى المرفوع فبادر بقصف المدينة وفرض حصارا حول ممباسا دام شهرين •

وفى يوم ٧ فبراير ١٨٢٤ وصلت الفرقاطة ليفيين التى كان يقـــودها الكابتن أويين ذات ٢٨ مدفعا : وقدم سليمان بن على التماسا مجددا الى الكابتن أويين لوضع ممباسا تحت الحماية البريطانية • وكان تصرف الكابتن أويين مختلفا اذ وافق على منح ممباسا والشريط الساحلى من ماليندى الى بانجابى الحماية البريطانية • وأجبر الأسطول العمانى على رفع الحصار • كما وقع اتفاقية مع سليمان بن على نصت على تعهد بريطانيا باعادة جميع المدن

التى كانت خاضعة لمباسا وضمان توارث الحكم فى أسرة المزروعى وتعيين وكيل بريطانى فى ممباسا واقتسام دخل الجمارك بين الطرفين والسماح لرعايا البريطانيين بالتجارة فى داخلية البلاد وتعهد من المزروعيين بالغاء تجارة الرق بالتعاون مع بريطانيا • كما قام أويين بعد ذلك بالاستيلاء على بمبا واعادتها الى المزروعيين •

وقد كان من الطبيعى أن تؤدى تلك الاجراءات الى خلق أزمة للعلاقات بين بريطانيا وعمان • فبعث السيد سعيد برسائل احتجاج الى السلطات البريطانية فى بومباى • وكان واضحا أن أويين قد تصرف بمحض ارادته ولم يكن مخولا من السلطات البريطانية • فبعثت حكومة الهند برسالة الى السيد سعيد تعبر عن دهشتها من تصرف أويين وتهدىء من روعه •

وفى عام ١٨٢٦ صدرت التعليمات من حكومة الهند بالغاء تلك الاجراءات وانسحاب القائد البريطانى من تلك المنطقة • كما ترك لبمبا وبرافا التصرف فى ما يخص مستقبلهما مع السيد سعيد • وبهذا القرار انتهت ما يسمى بأزمة أويين •

جهود السيد سعيد فى تحرير ممباسا :

وبانتهاء أزمة أويين بدأ السيد سعيد جهوده فى اعادة تحرير ممباسا التى استقلت بشؤونها منذ عام ١٧٣٩ • وبعد صدور القرار البريطانى بعث السيد سعيد برسالة الى سالم المزروعى الذى حل فى الحكم محل سليمان بن على عام ١٨٢٦ • وطلب السيد سعيد منه الاستسلام ، الا أن سالم وافق على ارسال زكاة محدودة ولكنه رفض الاستسلام الكامل •

واذ كان السيد سعيد مشغولا فى تلك الفترة فى شؤون الخليج فإنه ترك الأمور كما هى حتى عام ١٨٢٩ عندما تفرغ من فرض السلطة المركزية على ظفار أيضا أثر مقتل الوالى محمد عقيل فى مرباط • فقام السيد سعيد بأول

رحلة الى شرق افريقيا على رأس سفينته ليفربول مع أسطول ضخم وقوات قوامها ١٢٠٠ مقاتل • ورغم هذه الاستعدادات رفض سالم الاستسلام ، وقام السيد سعيد بعمليات القصف الا أنه منى بخسائر قوية ، فاضطر الى رفع الحصار والتوجه الى زنجبار ، حيث بدأ فى انشاء دعائم العاصمة الثانية للامبراطورية •

وفى مايو ١٨٣٠ ، اضطر السيد سعيد للعودة الى مسقط نتيجة الاضطرابات التى سادت بقيام حمود بن عزان حاكم صحار بمحاولة الاستيلاء على مسقط بعد نجاحه فى الاستيلاء على الخابورة وشناص • والواقع فان السلطات البريطانية قدمت مساعدات قيمة الى السيد سعيد فى غيابه وحالت دون نجاح خطط حمود بن عزان اذ رابطت فى ساحل الباطنة قطع حربية بريطانية ووجه المقيم السياسى البريطانى انذارات الى حمود بن عزان •

وبعد عودة السيد سعيد قام بمحاولة لاعادة سلطة الحكومة المركزية على صحار وحاول التحالف من أجل ذلك مع سلطان بن صقر حاكم الشارقة ورشيد بن حميد حاكم عجمان ، ولكن الأخيرين لم يقدما أية مساعدة فاضطر السيد سعيد إلى عقد صلح مع حمود بن عزان وافق بموجبه على بقاء حمود حاكما على صحار والخابورة ولكن تحت سيادة الحكومة المركزية •

وفى بداية ١٨٣٢ ، بدأ السيد سعيد رحلته الثانية الى شرق أفريقيا على رأس حملة قوية بهدف اخضاع ممباسا • وتكونت قواته من ١٤٠٠ مقاتل وأربع سفن كبيرة و ٦٠ بغلة • وقام بقصف ممباسا • واضطر هذه المرة سالم المزروعى للتوجه الى سفينة السيد سعيد للبحث عن شروط صلح مناسبة وتم الصلح ووافق سالم بموجبه على قبول سيادة عمان على ممباسا وأن يكون واليا عليها من طرف السيد سعيد وبقاء تلك الولاية فى ورثته وتقسيم العائدات الجمركية بين الطرفين •

ثم قام السيد سعيد بزيارة القلعة وبعد اجراء التحصينات أبقى فيها حامية عمانية من البلوش والعرب قوامها ٣٥٠ فردا على رأسهم العقيد سعيد بن خلفان ثم توجه الى زنجبار حيث بدأ فى بناء قصره المعروف « متوتى » • كما قام بالاهتمام بشؤون الزراعة وصدرت تعليماته بزراعة محاصيل جديدة مثل القرنفل والأرز • وفى نفس الوقت كلف والى زنجبار بالقيام بحملة لاسترداد مقديشيو ونجح الوالى فى مهمته •

ومرة أخرى حالت الأحداث الداخلية فى عمان دون اقامته الطويلة فاضطر للعودة من رحلته الثانية فى سبتمبر من نفس العام • وأثناء رحلته الى زنجبار كان قد عين لجنة مكونة من ابنه هلال وسعود بن على والى بركا ومحمد سالم لادارة شؤون الحكم • ولكن سعود بن على قام بعملية أسر هلال بن السيد سعيد ومحمد بن سالم وسجنهما فى بركا • وفى نفس الوقت قام حمود بن عزان وهلال بن محمد بمهاجمة الرستاق • وقام سلطان بن صقر بالاستيلاء على خور فكان ودبا • وقادت موزه بنت الامام أحمد المقاومة للحفاظ على مسقط يؤازرها محمد بن ناصر الجابرى • وقام المقيم السياسى البريطانى فى بوشهر بارسال انذار الى المتمردين • ولدى عودة السيد سعيد عقد صلحا مع سعود بن على حيث تم تعيينه واليا على رستاق وطلب مساعدة بريطانية للقيام بحملة بهدف استرداد خور فكان ودبا • الا أن السلطات البريطانية اعتذرت عن تلك المساعدة •

وفى نوفمبر ١٨٣٣ قام السيد سعيد بقيادة حملته الثالثة ضد المزروعيين فى ممباسا • والذى حصل أن السيد سعيد قبل مغادرته زنجبار كان قد كلف ناصر بن سلطان المسكرى القيام بحملة لتحرير ممباسا نهائيا من حكم المزروعيين وبمساندة الحامية العمانية الموجودة فى قلعة ممباسا • فتوجه ناصر الى ممباسا ونزل بالقلعة الا أن سالم المزروعى رفض التجاوب مع طلبه الذى اعتبره مخالفا للاتفاقية المعقودة مع السيد سعيد • فقام

ناصر بقصف المدينة من القلعة ، ولكن الأهالى وقوات سالم المزروعى استطاعت أن تفرض حصارا حول القلعة وعزلها ، ودام الحصار سبعة أشهر • وقبل قيام السيد سعيد برحلته الثالثة أوفد حملة بقيادة حامد ابن أحمد على ظهر السفينة العمانية شاه ولكن حامد وصل متأخرا •

وبعد أن عين السيد سعيد ابنه ثوينى هذه المرة نائبا عنه فى عمان وعقد صلحا مع القائد السعودى سعد بن مطلق توجه الى زنجبار فى رحلته الثالثة على ظهر سفينة الرحمانى ترافقها السفينة ليفربول الضخمة ذات ٧٤ مدفعا وبقوة قوامها ١٤٠٠ مقاتل وبعد وصوله الى ممباسا قام سالم المزروعى بقتل قائد الحملة السابقة ناصر بن سلطان المسكرى خوفا من انتقامه فى حالة نجاح السيد سعيد فى حملته •

وازاء هذا التصرف قام أسطول السيد سعيد بعمليات قصف ضد ممباسا والتى دامت ٨ أيام ، الا أنها لم تؤد الى هزيمة كاملة لسالم بن أحمد المزروعى • فتم الاتفاق على صلح وافق سالم بموجبه مرة أخرى على قبول السيادة العمانية • واتفق أيضا على بقاء القلعة خالية من أية حماية تابعة السيد سعيد مباشرة •

والواقع فان السيد سعيد بذل مجهودات مضنية فى تلك الفترة لتوسيع حجم النفوذ العمانى فى شرق افريقيا • واستطاع عن طريق المصاهرة أن يفرض سلطة أسمية لعمان على مدغشقر بعد عام ١٨٢٨ • كما أرسل عدة حملات الى سيوى وباتا واستطاع اخضاعها تحت حكمه • ولكن سلطة عمان على مدغشقر لم تدم طويلا اذ تمكن الفرنسيون من اخضاعها لسلطتهم عام ١٨٣٢ م •

ومرة أخرى أجبرت الأحداث فى عمان السيد سعيد للعودة الى عمان فى

أبريل من عام ١٨٣٥م • وهذه المرة كان بطل القلاقل أيضا حمود بن عزان حاكم صحار الذى استغل حادثة اغتيال سعود بن على للاستيلاء على الرستاق ثم تقدم لمهاجمة سمائل مستغلا ظروف وفاة واليها محمد بن ناصر الجابرى • وقد مكنت هذه الانتصارات حمود من أن يحاول التقدم صوب مسقط • وتدخل المقيم السياسى البريطانى فى يوليو ١٨٣٤ وأنذر حمودا بأن محاولة الاستيلاء على مسقط ستجبر السلطات البريطانية اعتباره عدوا لها •

وبعد عدة أشهر قام حمود بن عزان بالاستيلاء على السويق وتمكن ثوينى بن سعيد من استردادها ، ولكن الأمور لم تحسم الا بعد عودة السيد سعيد الذى قاد حملة على صحار ، وبرغم أن الحملة حققت انتصارات محدودة الا أنها أعادت سلطة السيد سعيد على أرجاء عمان ووضعت حدا لعمليات حمود بن عزان •

وقبل قيام السيد سعيد برحلته الرابعة الى شرق افريقيا فى نوفمبر عام ١٨٣٦ ، فانه حاول أن يضمن عدم قيام حمود بن عزان بأية محاولة أثناء فترة غيابه • فعقد تحالفا مع قائد القوات السعودية سعد بن مطلق فى البريمى للقيام بحملة مشتركة ضد حمود بن عزان ، وقام سعد بن مطلق بمحاصرة صحار برا وأسطول السيد سعيد بحرا • وقد أدت تلك الحركة الى اجبار حمود بن عزان على البحث عن صلح مرض للطرفين • كما بذلت السلطات البريطانية مساعيها الحميدة لعقد صلح بينهما • ووافق حمود بن عزان على عدم القيام بأية عمليات فى غياب السيد سعيد والتنازل عن ادعاءاته فى السويق •

ومكنت هذه الاتفاقات السيد سعيد من القيام برحلته الرابعة الى شرق افريقيا • وفى ممباسا أدى موت سالم بن أحمد المزروعى فى مارس ١٨٣٥ الى حدوث الاضطرابات والقلاقل بين أفراد أسرته والتنافس بين أخويه

خميس وناصر • واستمرت تلك الاضطرابات مدة عام تم الاتفاق بعدها على تولى راشد بن سالم بن أحمد المزروعى الحكم • وفى فترة الاضطرابات بعث أهالى ممباسا الذين ملوا تلك الصراعات الداخلية ، برسائل الى السيد سعيد طالبين منه التدخل •

وغادر السيد سعيد مسقط فى نوفمبر ١٨٣٦ ووصل ممباسا حوالى نهاية ذلك العام • ثم عرض على راشد الاستسلام وبعد رفضه قام السيد سعيد بانزال قواته ومدفعيته على الجزء الشمالى من ممباسا مستفيدا من خبراته السابقة • واستطاع اخضاع معظم ممباسا تحت سيطرته والحصول على ولاء خميس وناصر أعمام راشد • فاضطر راشد ازاء ذلك طلب الصلح ووافق بموجبه على الشروط السابقة بالخضوع للحكم العمانى واقتسام ايرادات الجمارك والابقاء على حامية عمانية داخل القلعة قوامها ٥٠٠ مقاتل وأن يقيم هو فى المدينة وليس فى القلعة •

وبعدها بفترة قام راشد بزيارة السيد سعيد فى زنجبار والذى عرض عليه التنازل عن ولاية ممباسا مقابل ولاية بمبا ، ولكن راشد رفض العرض وعاد الى ممباسا مكرما • وبعدها بشهرين صمم السيد سعيد بالتخلص نهائيا من أسرة المزروعى بمكيدة • فبعث بابنه خالد الى ممباسا والذى تمكن بعد وصوله الى القلعة من أسر حوالى ٣٠ شخصية من أسرة المزروعى بعد أن دعاهم لبحث بعض الأمور فى القلعة •

وبانتشار أنباء هذه الاعتقالات فر بقية أفراد المزروعى الى المناطق الداخلية •

وهكذا زال حكم المزروعيين من ممباسا والذى دام أكثر من قرن من الزمن • كما أن مجموع الشخصيات التى تم اعتقالها نقلت الى زنجبار ومنها الى بندر عباس وتم التخلص منهم •

وقد مكنت سيطرة السيد سعيد على ممباسا الى تحقيق الاستقرار فى شرق افريقيا ومكنته من اقامة طويلة دامت حتى سبتمبر ١٨٣٩ عندما اضطر للعودة ازاء التطورات التى حصلت بقيام خورشيد باشا بارسال سعد بن مطلق لاعادة احتلال البريمى ولكن بانسحاب القوات المصرية عام ١٨٤٠ من الجزيرة العربية قرر السيد سعيد فى ١٨٤١ القيام برحلته الخامسة الى زنجبار •

تميزت فترة اقامته الخامسة فى زنجبار باستقرار تام فى شؤون شرق افريقيا مما مكنه من الاهتمام بشؤون تطوير زنجبار وتقوية دورها لتصبح أهم ميناء فى شرق افريقيا تزورها سفن جميع دول العالم • وأثناء اقامته التى امتدت حتى عام ١٨٥١ م ، كانت جهوده العسكرية منصبة على اخضاع سيوى تحت سيطرته والتى بعث اليها بقوات قوامها ٢٠٠٠ مقاتل فى مارس ١٨٤٤ بقيادة حمود بن أحمد السمار •

وأثناء اقامته الطويلة التى دامت ما يقارب عقدا من الزمن ، شهدت عمان بعض الاضطرابات الداخلية الا أن تلك الاضطرابات كانت محدودة وكان السيد ثوينى بن سعيد قادرا على مواجهتها • وتمثلت تلك الاضطرابات فى محاولات هلال أكبر أبناء السيد سعيد للحصول على مركز سلطة فى عمان •

ويبدو أن الخلافات بين السيد سعيد وابنه هلال كانت قوية الى درجة أنه عين ابنه ثوينى حاكما على عمان فى غيابه بدلا من هلال • فقام هلال فى سبتمبر ١٨٤٥ بزيارة الى انجلترا ليعرض على الحكومة البريطانية شكواه • وأدى تصرفه هذا الى خلق مزيد من الكراهية بين الوالد والابن • فقام السيد سعيد فى نوفمبر عام ١٨٤٩ بنفى هلال من زنجبار فغادرها هلال الى لامو بعض الوقت ثم الى عدن وبقى هلال فى المنفى ومع تدهور صحته قضى نحبه يوم ١٨٥١/٩/٢٨ م •

والجزء الآخر من الاضطرابات تمثل مرة أخرى فى جهود حاكم صحار حمود بن غزان • وكما أسلفنا فان حمود وافق بموجب صلح عام ١٨٣٩ على عدم القيام بأية أعمال تحريضية ضد السيد سعيد • ولكن طموحاته كانت قوية ، وقبل قيامه بأى تحرك سافر الى بومباى لاستطلاع وجهة نظر السلطات البريطانيه ولم يلق أى تأييد من جانب تلك السلطات ، ونتيجة لليأس الذى دب فى نفسه فانه آثر التخلى عن حكم صحار وتنازل عن الحكم لابنه سيف ، وتحول الى شبه ناسك فى الرستاق •

واتبع سيف بن حمود سياسة مخالفة لسياسة والده فوثق علاقاته مع السيد ثوينى • الا أن تلك المواقف الى جانب خلافات سيف مع المطاوعة خلقت خلافات حادة مع والده الذى قرر العودة الى المسرح السياسى •

وتمكن أحد المطاوعة من اغتيال سيف وعاد حمود حاكما على صحار عام ١٨٤٩ م • وبعودته برزت المشاكل مجددا بينه وبين السيد ثوينى • واستطاع السيد ثوينى هذه المرة من اعتقاله وزجه فى سجن الجلانى حيث قضى نحبه فى أبريل ١٨٥٠ • ومن الجدير بالذكر أن السلطات البريطانية كانت قد عقدت اتفاقية مستقلة مع سيف بن حمود عام ١٨٤٩ لمنع تجارة الرق فى صحار •

ولكن اعتقال حمود ثم موته لم تنه المشاكل المستعصية مع صحار اذ سرعان ما نجح قيس بن عزان بالتعاون مع القواسم من أن يرث حكم أخيه فى صحار والخابورة وشناص • ولكن لدى عودة السيد سعيد من رحلته الخامسة فى مايو ١٨٥١ ، بادر الى شن هجوم ضد قيس وتمكن من استرداد الخابورة أولا ثم شناص • وازاء تلك التطورات وافق قيس ، نتيجة انسحاب حلفائه القواسم على التنازل عن صحار والاقامة فى الرستاق مقابل ٢٠٠ ريال ماريا تيريزى يتسلمها شهريا • وهكذا خضعت صحار للمرة الثانية للحكم المركزى للسيد سعيد وساد الاستقرار أنحاء عمان حتى تاريخ وفاته •

العلاقات الدولية فى عهد السيد سعيد

العلاقات مع بريطانيا :

اتسمت العلاقات العمانية فى عهد السيد سعيد بطابع الود بشكل عام ، ولو أن تلك العلاقات توترت فى فترة ما بين ١٨٢٤ — ١٨٢٦ ، نتيجة أزمة أوبين كما أسلفنا • وكانت العلاقات فى المرحلة الأولى تحـدوها مبـادىء قولنامة ١٧٩٨ التى نصت على اعتبار عدو أى من الطرفين عدوا للطـرف الآخـر •

وكان السيد سعيد يعتقد منذ البداية أنه من واجب السلطات البريطانية مساعدته فى حروبه ضد كافة أعدائه • فلم يكن يدخر جهدا لطلب المساعدة البريطانية فى حروبه ضد القواسم أو السعوديين ، بل أنه طالب بريطانيا بالتحالف معه للاستيلاء على البحرين كما أسلفنا •

ويلاحظ فى هذا الصدد أن السلطات البريطانية كانت دقيقة فى تحديد مواقفها من تلك الصراعات ، فكانت تقدم المسـاعدات العسكرية لأطراف تكون هى فى صراع معها مثل القواسم أبان حملات عام ١٨٠٩ و ١٨٢١ ، ثم توقفت عن تقديم تلك المساعدات ضد القواسم بعد ابرام معاهدات السلم البحرية • كما قدمت مساندة سياسية إبان احتلال سعد بن مطلق للبريمى مرة أخرى عام ١٨٣٩ بايعاز من السلطات المصرية لانها كانت فى حرب مع المصريين • كما أنها قامت بتوجيه الانذارات لمنافسى السيد سـعيد عنـدما كان المنافسون يهددون العاصمة مسقط كما حصل أثناء حملات حمود بن عزان عام ١٨٣٤ وغيرها • الا أن السلطات البريطانية كانت حريصة على عدم زج نفسها فى الصراعات الداخلية بين دول الخليج فتقاعسـت عن تقـديم أية مساعدة لحاكم عمان فى حروبه ضد السعوديين ، كما لم تقدم له أية مساعدة

من أجل تحـــرير بعض المناطق التى تمكن القواســـم من السيطرة عليها فى الأجزاء الشمالية الشرقية من عمان •

ومع مرور الوقت ثبت للطرفين أن مبادىء قولنامة عام ١٧٩٨ فى الوقت التى أدت الى التعاون بين البلدين الا أنها لم تكن تفرض التزامات مترمتة تحول دون توثيق علاقات عمان بالدول الأخرى • وكان أكثر ما يهم بريطانيا خصوصا فى فترات الحروب عدم حدوث تقارب بين عمان ودولة أخرى قد يؤدى بالأضرار بمصالحها الحيـــوية فى الخليج الذى اعتبرته الســـلطات البريطانية مفتاح ضمان السيطرة على الهند •

وبمرور الوقت فان تلك العـــلاقات أخذت تتجـــه الى مزيد من طابع التعاون فى الميادين الاقتصادية والتجارية والعسكرية أحيانا الا أنها تميزت باحترام استقلال عمان وحقها فى عقد اتفاقيات مستقلة مع الدول العظمى فى العالم • بل اننا نجد أن عمان عقدت أول معاهدة صـــداقة مع الولايات المتحدة عام ١٨٣٣ وليس مع بريطانيا • بل أن المعاهدة مع أمريكا كانت أساسا للمعاهدة التى عقدت مع بريطانيا عام ١٨٣٩ ومع فرنسا عام ١٨٤٤ م•

وقد نصت معاهدة الصداقة بين البلدين عام ١٨٣٩ على حرية التجارة وتحديد الجمارك بـــ ٥ ٪ وتمتع الدولتين ازاء الدولة الأخرى بمعاملة الأكثر رعاية وامتناع أية دولة عن نقل المعدات الحربية الى دولة معـــادية أثنـــاء الحرب وتخويل القنصل البريطانى حق القضاء فى المعاملات المتعلقة بالرعايا البريطانيين أو المتعلقة بقضية يكون طرف النزاع فيها بريطانيا •

وبشكل عام كانت العلاقات ودية للغاية وكانت الهدايا يتم مبادلتها ، وكانت الوفود تقوم بالزيارات لتقديم التهانى • بل أن السيد سعيد لم يجد حرجا فى اهداء بريطانيا أكبر قطعة حربية : السفينة ليفربول عندما وجد أنه بامكانه الاستغناء عنها وتوفير تكاليف صيانتها الباهظة وبالمقابل أهـــدته بريطانيا يختا تجاريا •

العلاقات مع فرنسا :

كان السيد سعيد حريصا منذ بداية توليه الحكم على استمرار علاقات الصداقة مع فرنسا وفى مستهل حكمه بعث برسالة الى الجنرال ديكان حاكم جزيرة فرنسا التى كانت مقرا للقوات الفرنسية فى الشرق معبرا عن رغبته فى استمرار تلك العلاقات الودية • الا أن حرصه هذا لم يحل دون التزامه بإبعاد عمان عن الصراعات بين الدولتين العظميين ، والتزامه أيضا بنصوص قولنامة ١٧٩٨ ، فأرغم سفينة فرنسية حربية على الخروج من مياه مسقط مما أدى الى توتر العلاقات لفترة وجيزة ، ولكنه عاود الاتصال بالجنرال ديكان عارضا عليه عقد معاهدة صداقة بين البلدين وفعلا تم ذلك فى ١٥ يونيو ١٨٠٧ والتى نصت على عودة العلاقات الودية بين البلدين واحترام حياد عمان بالنسبة للصراع الدائر بين فرنسا وبريطانيا الا أن الحكومة الفرنسية لم تصادق على تلك المعاهدة نظرا لأن فرنسا كانت ترغب فى تحقيق حصارها البحرى على السفن البريطانية ومنع السفن البريطانية من زيارة مسقط •

وبرغم ذلك عمل الجنرال ديكان على استمرار العلاقات التجارية الودية وأوفد مبعوثا عام ١٨٠٨ ليعمل على توطيد تلك العلاقات ، ولكن انتصار بريطانيا على الفرنسيين فى بحار الشرق عام ١٨١٠ وتسليم الفرنسيين لجزيرة فرنسا مقر قيادتهم الى البريطانيين أدى الى زوال التواجد الفرنسى من بحار الشرق •

وبحلول عام ١٨١٤ تمكنت فرنسا من استعادة جزيرة البوربون وعملت على اعادة العلاقات الودية مع عمان وترتب عليها ترقيع معاهدة فى ٣٠ مارس ١٨١٧ والتى بقيت سارية المفعول حتى عام ١٨٤٤ عندما تم استبدالها

بمعاهدة جديدة • ولكن بعد تلك المعاهدة عاد التوتر من جديد بين البلدين فى أواخر العقد الرابع من القرن التاسع عشر عندما تبينت للسيد سعيد أطماع الفرنسيين فى شرق افريقيا •

ويعود سبب التوتر الى قيام الفرنسيين باحتلال جزيرة نوسية بيه والتى كان السيد سعيد يؤكد خضوعها له استنادا على اتفاق مع ملكة تلك الجزيرة التى أعلنت ولاءها له • وعندما تسلم السيد سعيد رسالة من حاكم جزيرة بوربون يعلن رغبته فى تعيين قنصل فرنسى فى زنجبار أسوة بالأمريكيين فانه اعتذر قبول تعيينه حتى يتم الانتهاء من توقيع المعاهدة الجديدة •

وفى ٤ نوفمبر ١٨٤٤ ، تم التوقيع على المعاهدة التجارية الجديدة مع فرنسا ، والتى كانت مشابهة للمعاهدة المعقودة مع الولايات المتحدة الأميريكية عام ١٨٣٣ ومع بريطانيا ١٨٣٩ • وقد استعرض السيد سعيد قبل توقيع المعاهدة وجهة نظر السلطات البريطانية فى عقد معاهدة مع فرنسا • وكانت وجهة نظر اللورد ابردين عدم رغبة بريطانيا فى التدخل فى أمر المعاهدات ، الا أنه أكد حرص بريطانيا بعدم منح الفرنسيين امتيازات تفوق الامتيازات الممنوحة لانجلترا •

وقامت فرنسا بعد توقيع الاتفاقية بارسال بعثة بقيادة الكابتن جويان الذى قام خلال الفترة ١٨٤٦ — ١٨٤٧ بعمل مسح فنى حول بعض المناطق الساحلية لشرق افريقيا • وكان من ضمن أهداف المسح تحديد موقع مناسب فى شرق افريقيا مقابل الموقع الاستراتيجى للبريطانيين فى عدن • كما حاول الكابتن جويان اقناع أهالى لامو وبرافا ببيع أراضيهم للحكومة الفرنسية •

الا أن السيد سعيد الذى كان على علم بجهود الفرنسيين ، استطاع مواجهتها واحتوائها •

وبشكل عام فقد ساهمت اتفاقية عام ١٨٤٤ على نمو وازدهار العلاقات التجارية بين البلدين • وتبع ذلك تأسيس قنصلية فرنسية فى زنجبار عام ١٨٤٧ م • وكانت السفن الفرنسية وهى تحمل البضائع تجوب موانىء عمان • كما وفدت احدى سفن السيد سعيد الى مرسيليا عام ١٨٤٩ حاملة هدايا الى رئيس الجمهورية الفرنسية •

العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية :

تعتبر معاهدة الصداقة والتجارة التى وقعت بين السيد سعيد والولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٣٣ تطورا مهما ليس فى مجرى العلاقات بين البلدين ، بل أيضا فى نقل عمان الى مصاف الدول التى كانت تلقى الاحترام من جانب القوى العظمى • وهذه المعاهدة هى التى فتحت الطريق أمام بريطانيا وفرنسا لعقد معاهدات مماثلة •

ومن الأسباب الرئيسية التى أدت الى عقد معاهدة مع الولايات المتحدة بعض الصعوبات التى كان يلقاها التجار الأميركيون فى زنجبار ، فأبدى السيد سعيد ملاحظاته بأنه يمكن التغلب على تلك الصعوبات بعقد معاهدة تجارية دائمة • وكان عدد التجار الأمريكيين فى تلك الفترة فى زنجبار يفوق عدد التجار الانجليز باستثناء الهنود الذين كانوا أيضا من رعايا انجلترا •

ويذكر لين أن دخل السيد سعيد من التجارة مع الأمريكيين كان يشكل جزءا أساسيا من دخل الجمارك • وتولى نقل المراسلات بين السيد سعيد والحكومة الأمريكية التاجر الأميركى ادموند روبرتس ، وحصل روبرتس على تفويض لتوقيع تلك المعاهدة بالنيابة عن الرئيس الأميركى اندرو جاكسون ،

وكانت تنص على قيام العلاقات الودية بين البلدين وتعيين قناصل أمريكيين وتفويض القنصل الأمريكى حق القضاء فى النزاعات بين الأمريكيين وتصفية ممتلكاتهم بعد وفاتهم ، وأعطت للسيد سعيد حق الشكوى الى رئيس الولايات المتحدة فى حالة تصرف أى قنصل بشكل غير لائق •

وأعقب توقيع تلك المعاهدة عرض من السيد سعيد بقيام الولايات المتحدة بمساعدته فى اعادة سيطرته على ممباسا ، وهو الهدف الرئيسى الذى ركز جهوده حوله فى تلك الفترة • وبرغم أن هذا العرض لم يلق أى تجاوب من جانب الولايات المتحدة ، الا أنه كان كافيا لاثارة شكوك السلطات البريطانية التى قررت ايفاد الكابتن هارت عام ١٨٣٤ لمراقبة التطورات • وقد طمأنه السيد سعيد على حسن نواياه وأبدى استعداده لعقد معاهدة مماثلة مع بريطانيا ، الأمر الذى من شأنه النهوض بتجارتها مع زنجبار لأن معظم التجارة فى تلك الفترة كانت بأيدى الأمريكيين •

وتبع توقيع المعاهدة مع أمريكا تعيين ريتشارد واترز أول قنصل للولايات المتحدة فى زنجبار فى مارس ١٨٣٧ وتبع ذلك تعيين هنرى ب مارشال قنصلا فى مسقط فى أكتوبر ١٨٣٨ • وعندما غادر مارشال مسقط بعد ذلك بعدة أشهر تم تكليف أحد العمانيين وهو سعيد بن خلفان الذى كان يعمل مترجما فى القنصلية ليدير الشؤون القنصلية فى مسقط تحت اشراف واترز فى زنجبار • ونتج عن نمو وازدهار تلك العلاقات التجارية أن بعث السيد سعيد على ظهر سفينته سلطانة وفدا برئاسة أحمد بن نعمان الى نيويورك لتوطيد العلاقات السياسية ولتقديم هدايا الى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وذلك عام ١٨٤٠ م •

وفاة السيد سعيد وأوضاع الامبراطورية بعد وفاته :

بعد أن أنهى السيد سعيد خلافاته مع الفرس عام ١٨٥٦ استعد للقيام برحلته الأخيرة الى زنجبار • فغادر مسقط على ظهر بارجته فيكتوريا يوم ١٥ من سبتمبر عام ١٨٥٦ ، وقبل وصوله الى زنجبار وافته المنيه فى البحر يوم ١٩ أكتوبر ١٨٥٦ م •

وترك السيد سعيد بعد وفاته امبراطورية واسعة الأرجاء • فعلى صعيد اتساع الامبراطورية فانه بالاضافة الى حدود عمان السياسية فى تلك الفترة فان معظم الموانى الاستراتيجية على الجانب الفارسى من الخليج مثل بندر عباس وتوابعها كانت خاضعة للحكم العمانى بعقد ايجار من حكومة فارس • وكلمة توابع بندر عباس كانت تنطبق على الساحل من جنوب بندر عباس حتى مدينة جاسك امتدادا الى نهر سوديج وكانت أهم تلك المدن المؤجرة جزيرتى هرمز وقشم ومنطقة تازيان وشامل وميناب • وفى شرق افريقيا بلغ نفوذ عمان أقسى اتساعه ، وكان يشمل جميع الموانى الواقعة بين رأس دلجادو ورأس جردفون وأهم الجزر زنجبار العاصمة الثانية وبمبا ومافيا الى جانب عشرات المدن الساحلية من مقديشيو شمالا حتى مصب نهر روفوما جنوبا •

وبرغم عدم توفر احصاءات دقيقة عن مجموع قطع السفن الحربية الا أن اللفتاننت هارت أحصى فى زنجبار عام ١٨٣٤ السفينة الحربية الضخمة ليفربول ذات ٧٤ مدفعا وفرقاطة ذات ٥٠ مدفعا وطرادا به ٢٠ مدفعا وسفينة شراعية ذات ثلاث صوارى بـ ١٠ مدافع وسفينة شراعية ذات صاريتين كلها بنيت فى الهند • الى جانب السفينة مصطفى التى كانت مشغولة فى حصار حول ممباسا •

وفى مسقط أحصى أحد الزائرين فى نفس العام خمس سفن ذات ٣٠

مدفعا وستة أخرى احداها ذات ٢٤ مدفعا وأخرى ذات ٢٢ مدفعا ومنها اثنتان بكل منهما ١٨ مدفعا واثنتان بكل منهما ١٢ مدفعا • والى جانب ذلك كان السيد سعيد يملك سفينتين تجاريتين •

وكانت كل تلك السفن تؤدى مهاما عسكرية وقت الحـــروب ومهـــاما تجارية وقت السلم • ومن الواضح أن هذه الاحصاءات ليست دقيقة فهى فقط تمثل السفن المتواجدة فى مسقط وزنجبار أثناء زيارة هؤلاء الأشخاص • وفى مجال الموارد المالية تشير احصاءات عام ١٨٣٤ بأن ايراداته من جمارك مسقط بلغت بين ١٦٥ ألف الى ٢٠٠ ألف ريال ماريا تيريزى وهذا يعنى جملة واردات قدرها ٣ر٣ مليون ريال • وبالتالى تعتبر مسقط أهم ميناء بعد جدة فى الجزيرة العربية •

وقدرت جمارك زنجبار بـــ ١٥٠ ألف ريال ولكن تلك الأرقام متواضعة جدا اذا أخذنا فى الاعتبار الازدهار الذى أصـــاب زنجبار بعد عام ١٨٣٤ نتيجة اهتمامات السيد سعيد بادخال منتجات زراعية جديدة فى زنجبار مثل القرنفل والسكر والأرز • كما أن تلك الاحصاءات لا تشمل الايرادات من تجارة السيد سعيد شخصيا ومن العوائد المالية من مختلف الموانى فى الخليج وشرق افريقيا الى جانب العشور على المنتجات الزراعية •

الفصل الرابع

حالة الامبراطورية العمانية بعد وفاة السيد سعيد بن سلطان

ضعف الامبراطورية العمانية :

أدت وفاة السيد سعيد بن سلطان الى حدوث صدمة نفسية كبيرة فى نفوس أبناء عمان قاطبة ، اهتزت لها تلال عمان حسب وصف المؤرخ العمانى ابن رزيق • وكانت صدمتها أقوى على كيان الامبراطورية العمانية التى دب فى بنيانها التفكك التدريجى نتيجة سلسلة من الأحداث السياسية والاقتصادية المتلاحقة •

فعلى الجانب السياسى ، تولى السيد ثوينى بن سعيد أكبر أبناء السيد سعيد حكم عمان نظرا لأن أخويه الأكبرين هلال وخالد توفيا قبل وفاة والدهما • وكان السيد ثوينى مضطلعا بشؤون عمان ، محاربا جريئا قاد حملة الحصار ضد بندر عباس بنفسه ، كما تمكن من تخليص والده من منافس قوى وهو حمود بن عزان حاكم صحار • وفى زنجبار كان ماجد بن سعيد يقوم بمهام والده أثناء فترة غيابه بعد وفاة أخيه خالد عام ١٨٥٤ م •

أولى المشاكل التى اعترضت السيد ثوينى بعد توليه حكم عمان ، نقص الموارد المالية، حيث كانت زنجبار أغنى من مسقط وكانت الايرادات من زنجبار تشكل ثلثى ايرادات الدولة أيام السيد سعيد ، فأجرى السيد ثوينى اتصالاته مع أخيه ماجد وتم الاتفاق بأن يقدم ماجد معونة سنوية للسيد ثوينى مقدارها ٤٠ ألف ريال ماريا تيريزى ، وكان هذا الترتيب ، كما وضح فيما بعد ، ترتيبا وديا بين الأخوين ، لم يكن السيد ثوينى يقصد بها اعترافا باستقلال زنجبار عن عمان أو تفكيك أوضاع الامبراطورية • وكان على السيد ثوينى مقابل ذلك أن يقدم لماجد نصف عدد الخيول العمانية سنويا •

وفى عام ١٨٥٨ م توقف ماجد عن سداد التزاماته برغم أنه بعث بوفد لاستلام نصف كمية الخيول المتفق عليها • ووجد السيد ثوينى أن أفضل أسلوب لمواجهة تحديات أخيه هو قيامه بحملة حربية ضده • فقام فى نهاية عام ١٨٥٨ م • بتجهيز تلك الحملة والتى تكونت من الفرقاطة كارولين والطراد كرليو والسفينة الرحمانى وحوالى ١٢ بغلة وقوة قوامها ٢٥٠٠ مقاتل •

وعندما وصلت أنباء تلك الحملة الى مسامع السلطات البريطانية ، سارعت الى ايفاد بعثة الى السيد ثوينى والتى تمكنت من اللحاق به وهو لا يزال فى صور فى طريقه الى زنجبار • وقام الكولونيل رسل بتسليم رسالة الى السيد ثوينى من حاكم بومباى تطلب منه ايقاف الحملة مع وعد من السلطات البريطانية بأن يتولى الحاكم العام فى الهند الفصل فى تلك المشكلة • وتجاوب السيد ثوينى مع الاقتراح البريطانى نظرا لعلاقات الصداقة الوطيدة التى كانت قائمة بين البلدين ، ووعد بارسال سفينته لاستدعاء القطع الحربية من أسطوله التى سبقته الى زنجبار •

تقسيم الدولة العمانية الى سلطنتين :

فى الأول من مارس ١٨٦٠ م ، عين الفينستون ، حاكم بومباى ، البريجادير كوجلان ، المقيم السياسى فى عدن على رأس بعثة لتقصى الحقائق حول النزاع بين الأخوين ثوينى وماجد • وكان يساعد كوجلان القس بيرسى بادجر الذى كان له دور مهم فى استقصاء الجوانب التاريخية للأزمة • وباشرت اللجنة عملها فى مسقط يوم ١٢ يونيو ١٨٦٠ م حيث قضى كوجلان تسعة أيام مع السيد ثوينى فى مناقشة حول الأزمة •

ومن الوجهة التاريخية أثبت كوجلان عدم صحة ادعاءات السيد ماجد والتى كانت معززة من قبل ريجبى ، المقيم السياسى البريطانى فى زنجبار ،

وكانت وجهة نظر ثوينى تتمثل أنه بصفته الحاكم الشرعى على عمان فهـو أيضا الحاكم الشرعى على توابع عمان •

كما أكد السيد ثوينى بأن والده لم يفكر قط فى تقسيم الامبراطورية الى قسمين ، وأن الرغبة التى أبداها والده عام ١٨٤٤ م بجعل ابنه خالد حاكما على زنجبار وثوينى حاكما على عمان لم تكن أكثر من رغبة فى تحقيق استقرار ادارى ويعنى بها تعيينهما محافظين أو ولاة كما جرت العادة فى عمان • كما أن السيد سعيد قد جعل للدولة خزانة مركزية واحدة •

وقد ساند كوجلان وجهات نظر السيد ثوينى فى تقريره الى حكومة بومباى ، فمن الناحية التاريخية كما أوضح زميله بادجر ، فان مبايعـــة مشايخ القبائل الرئيسية لأى حاكم هو الذى كان يقرر مستقبل الحاكم ، وبالتالى فان وجهة نظر السيد ثوينى بعدم امكان تقسيم الدولة من قبل أى حاكم كانت سليمة ، كما أن حكام عمان مارسوا حق تعيين أى من أبنائهم كمحافظين أو ولاة على أى جزء من البلاد ولم يكن مثل ذلك التعيين دليـلا على تقسيم البلاد الى وحدات مستقلة • وفيما يتعلق بالمعونة التى اتفق الاخوان عليها فان السيد ثوينى أكد لرئيس البعثـة البريطانية بأن تلك المعونة قد تم الاتفاق عليها بشكل ودى ، وأن الوفد العمانى الذى تفاوض مع السيد ماجد لم يخول صلاحية الاتفاق على شروط معينة مقابل تلك المعونة مثل تقسيم الدولة أو غيرها •

سافر كوجلان الى زنجبار فى سبتمبر ١٨٦٠ م • لمقابلة السيد ماجد من أجل استكمال أعمال اللجنة • وبعد مناقشات دارت مع السيد ماجد لم يغير كوجلان وجهة نظره فى المسائل الأساسية • فبالنسبة لادعاءات ماجد بأن والده كان ينوى تقسيم الدولة بين أبنائه كتركة ، أكد كوجلان أن تلك الادعاءات ليست لها أسس تبررها ، وأن السـيد ماجد اعترف بأن اعادة تقسيم الدولة الى وحدات مستقلة لم توجد حقا فى التاريخ العمانى •

أما بالنسبة لحجة ماجد بأن تعيينه جاء باختيار من أفراد أسرة البوسعيد والمشايخ الآخرين فى زنجبار ، فان كوجلان بنفسه رد بأن القبائل فى عمان هى التى كانت تملك حق المبايعة والتعيين من الناحية التاريخية وأن أهالى زنجبار لم يمارسوا مثل ذلك الحق لأنهم كانوا بمثابة رعايا لحكومة عمان •

وأما حجة ماجد بأنه تم الاعتراف به كحاكم من قبل الدول العظمى وبالذات من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا ، فان كوجلان أوضح بأن تشكيل لجنة تقصى الحقائق من قبل الحاكم العام فى الهند وحتى ظهور نتائج وتوصيات اللجنة وقرار الحاكم العام يسقط حجة الامتثال لمواقف الدول الأخرى •

تلك كانت وجهات نظر كوجلان من الناحية التاريخية ، الا انه من الناحية السياسية فان توصياته جاءت ليس لاحقاق الحق بل فيما يمكن أن يخدم وجهة نظره الاستقرار فى المنطقة ومصالح بريطانيا على المدى البعيد • وبناء عليه فانه أوصى بأن استقلال كل من الحاكمين سيؤدى الى تحقيق استقرار مثالى مع مراعاة فوارق الدخل بين الحاكمين ، كما أن استقلال زنجبار سيؤدى حتما الى أداء خدمة جليلة للحد من المنازعات • وبناء عليه قدم كوجلان ست توصيات :

١ — تثبيت السيد ماجد حاكما فى زنجبار وتوابعها •

٢ — عدم السماح لمسقط والقبائل العمانية التدخل فى شؤون زنجبار •

٣ — أن يدفع ماجد الى ثوينى معونة سنوية مقدارها ٤٠ ألف ريال تيريزى وسداد المتأخرات من تلك المعونة منذ عام ١٨٥٨ م •

٤ — أن تكون تلك المعونة بشكل دائم وأن تدفع من قبل ورثة ماجد الى ورثة ثوينى مستقبلا •

٥ — ألا تتوقف تلك المعونة ألا فى حالة قيام حاكم مسقط بمحاولة الاستيلاء على زنجبار بالقوة العسكرية •

٦ — فى حالة حدوث مثل تلك المحاولة أو فى حالة فشل حاكم زنجبار دفع المعونة فعلى الطرف المتضرر تقديم شكوى الى حكومة الهند قبل اللجوء الى القوة •

أقر جورج كلارك ، حاكم بومباى الجديد توصيات كوجلان وتم ارسالها الى تشارلز جون كاننج ، نائب الملك والحاكم العام فى الهند فى فبراير ١٨٦١ م • وفى الثانى من أبريل ١٨٦١ م • أصدر الحاكم العام تحكيمه : ماجد يصبح حاكما على زنجبار وتوابعها وعليه دفع معونة سنوية مقدارها ٤٠ ألف ريال ماريا تيريزى الى حاكم مسقط بالاضافة الى متأخرات المعونة عن السنتين الماضيتين •

ثم بعث كاننج برسالتين متشابهتين الى كل من السيد ثوينى والسيد ماجد توضحان بأن تلك المعونة تصبح ملزمة فى ورثة الحاكمين وهى تمثل حلا نهائيا بهدف تعويض الفوارق المالية من دخل كل منهما • وجاءت الخطوة الأخيرة فى اقرار تحكيم كاننج من باريس يوم العاشر من مارس ١٨٦٢ م • عندما صدر البيان المشترك البريطانى والفرنسى والذى تضمن تعهد الدولتين باحترام استقلال كل من سلطنة مسقط وزنجبار •

كانت نتائج التقسيم وخيمة على مستقبل عمان • فمن الناحية العسكرية انشطر الأسطول العمانى الى قسمين • فالسفن التى كانت موجودة فى زنجبار وتلك التى رافقت السيد سعيد فى رحلته الأخيرة آلت الى السيد ماجد ، بينما آلت السفن التى كانت موجودة فى مسقط الى السيد ثوينى وكان عددها أقل •

ومن الناحية الاقتصادية فان نتائج هذا القرار كانت رهيبة جدا على

الاقتصاد العمانى • فزنجبار وتوابعها قدرت ايراداتها عام ١٨٤٤ م بأكثر من ٤٠٠ ألف ريال ماريا تيريزى ، وكانت تمثل ثلثى دخل الخزينة بينما التزم ماجد بسداد معونة قدرها ٤٠ ألف ريال فقط •

وبالنسبة لاستمرارية المعونة فان حاكم زنجبار استمر فى سدادها حتى عام ١٨٧٣م ، ثم وافقت بريطانيا بعدها على اعفاء حاكم زنجبار من تلك المعونة مقابل تعهد كامل بمساعدته لمنع تجارة الرقيق والتزمت السلطات البريطانية بسداد المعونة من خزانتها • ومنذ عام ١٨٨٨م • كانت تلك المعونة تدفع من قبل السلطات البريطانية الحاكمة فى الهند والتى استمرت فى سدادها حتى عام ١٩٤٧ عندما استقلت الهند عن بريطانيا •

التدهور الاقتصادى فى عمان بعد وفاة السيد سعيد :

اذا كان تقسيم الامبراطورية الى قسمين يعتبر من الناحية السياسية والاقتصادية العامل الرئيسى الذى أدى الى اضمحلال الامبراطورية وتدهور مكانة عمان التى عرفت بأنها « الدولة البحرية الأولى » فى تلك الفترة ، فان ثمة عوامل أخرى سياسية واقتصادية خارجية وداخلية ساهمت بدورها فى احداث مزيد من التدهور الاقتصادى والتراجع الحضارى الى درجة أن أحد التقارير أشار فى عام ١٨٦٨ م بأن مسقط أصبحت مدينة شبه مهجورة •

ففى الجانب السياسى فان الأوضاع والصراعات الداخلية التى حدثت بعد وفاة السيد سعيد فى عمان خلال فترة لا تزيد عن ١٢ عاما ، أدت الى تولى ثلاث شخصيات حكم عمان • فالسيد ثوينى واجه فى البداية منافسة شديدة من قبل أخيه تركى والتى أدت الى استنزاف جزء كبير من موارد الدولة • ثم جاءت المنافسة من نجله سالم الذى تمكن
عام ١٨٦٦ م • ولكن حكم سالم لم يدم أكثر من عامين تمكن بعدها الامام عزان بن قيس الاستيلاء على الحكم • وكانت نتائج هذه الحروب الداخلية

كبيرة على الاقتصـــاد العمـــانى وســـاهمت فى تحقيق مزيد من التـــدهور الاقتصادى التدريجى •

وفى الجانب الاقتصادى واجهت عمان منافسة حضارية باحلال سفن بخارية أوربية محل السفن التقليدية والتى لم تستطع التكنولوجيا العمانية مجاراتها فأدى الى ركود اقتصادى تجارى تدريجى •

ومن المعلوم تاريخيا أن الاقتصاد العمانى كان موزعا بين نشاط زراعى فى الأجزاء الداخلية من عمان ونشاط زراعى وتجارى فى المناطق الساحلية • وكان النشاط الزراعى فى عمان الداخلية نشاطا استهلاكيا معيشيا ، يحاول تحقيق الاكتفاء الذاتى ، وباستثناء الليمون المجفف والبسور ، فان النشاط الزراعى لم يكن يلعب دورا يذكر فى قيمة الصادرات ، كما أن الحواجز الطبيعية مثل الجبال والصحارى والوديان ووسائل النقل البدائية (استعمال الجمال) ، كانت تحول دون قيام الزراعة بدور فى حركة التجارة وانعاش خزينة الدولة • وبالتالى فان الموارد الأساسية كانت تأتى من أنشطة الموانىء التجارية فى عمان والخليج وشرق افريقيا والتى كانت تتمثل فى الاستثمارات النقدية والملاحة والأعمال التجارية والتجارة الخارجيـــة • والتى كانت فى مجموعها تدر دخلا ثابتا من الجمارك لخزينة الدولة ولكن الذى حصـــل فان عمان واجهت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر مجموعة تحديات أدت الى تقويض الدور التجارى والملاحى التاريخى لعمان •

تدهور النشاط التجارى والملاحى :

كانت صناعة السفن فى عمان تمثل دعامة من دعائم الاقتصاد الوطنى فى المنطقة عبر آلاف السنين • وكان الملاحون العمانيون فى العصور الوسطى رواد الرحلات البحرية الى بلاد الصين • وكانت التكنولوجيا البحرية العمانية فى تلك العصور تضم خبرة تعد فى طليعة الخبرات فى مجال بناء السفن ،

وبالذات فى مجال بناء السفن متوسطة الحجم • ولكن بظهور السفن الأوروبية الضخمة ذات الصوارى الأربعة أو الثلاثة والمزودة بعشرات المدافع منذ القرن السابع عشر ، ظهرت الحاجة الى تملك العمانيين أيضا لمثل تلك السفن لمواجهة التحديات العالمية ، فلجأ حكام عمان الى أحواض بناء السفن فى الهند لسد حاجتهم من مثل تلك السفن بأعداد محدودة الا أن الجزء الأكبر من قطع الأسطول كانت من السفن المتوسطة الحجم والتى كانت أحواض السفن العمانية قادرة على توفيرها ، كما أن ورش صب الحديد كانت قادرة على تزويد أسطول الدولة بالمدافع •

وبحلول الستينات من القرن التاسع عشر ظهرت السفن البخارية الأوربية على مسرح الملاحة فى الخليج وبدأت تقوم بدور فعال فى عمليات النقل التجارى • ولم يستطع العمانيون مواجهة هذا التحدى الضخم الذى كان يفوق قدراتهم ، خصوصا وأن تلك السفن كانت تقوم بعمليات النقل التجارى بأسعار أرخص من السفن الشراعية •

وترتب على هذا الوضع توجه التجار الى السفن البخارية لنقل بضائعهم تجنبا للتكاليف المرتفعة فى السفن الشراعية • وأدى هذا الوضع بدوره الى توقف السفن العمانية تدريجيا عن أداء دورها التجارى فى مجال النقل البحرى ، واضطر العديد من أصحاب السفن الى بيع سفنهم لمواجهة تكاليف المعيشة أو للتخلص من تكاليف الصيانة والبطالة •

وهكذا انتقلت الأرباح الى الشركات الأوروبية بدلا من الملاحين العمانيين والخليجيين • وكما أسلفنا فانه بانفصال زنجبار فقد الأسطول العمانى للدولة أكثر من نصف قطعه والتى كانت تلعب دورا فى عمليات النقل التجارى لحاكم الدولة • وفى الستينات اضطر حكام عمان الى بيع عدد آخر من قطع الأسطول •

كان عدد السفن الكبيرة التى كان العمانيون يملكونها عام ١٨٧١ م

حوالى ١٦ سفينة ، وكان الاحتفاظ بها أمرا عسيرا لحاجتها المستمرة للصيانة الباهظة التكاليف الى جانب المنافسة القوية من السفن البخارية فاضطر العمانيون للتخلص من هذا النوع من السفن فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

وبمجىء السفن البخارية وقلة الحاجة الى السفن الشراعية الضخمة فان صناعة السفن فى عمان تأثرت بدورها الى حد كبير . كما قلّت العناية بالسفن الضخمة ، ويقرر ولستيد أنه فى عام ١٨٣٨ شاهد سفينة عمانية الصنع لا تقل حمولتها عن ٤٠٠ طن ، أما السفن التى كانت تبنى فى عمان فى أواخر القرن التاسع عشر فلم تكن تزيد حمولتها عن ١٠٠ الى ٢٠٠ طن .